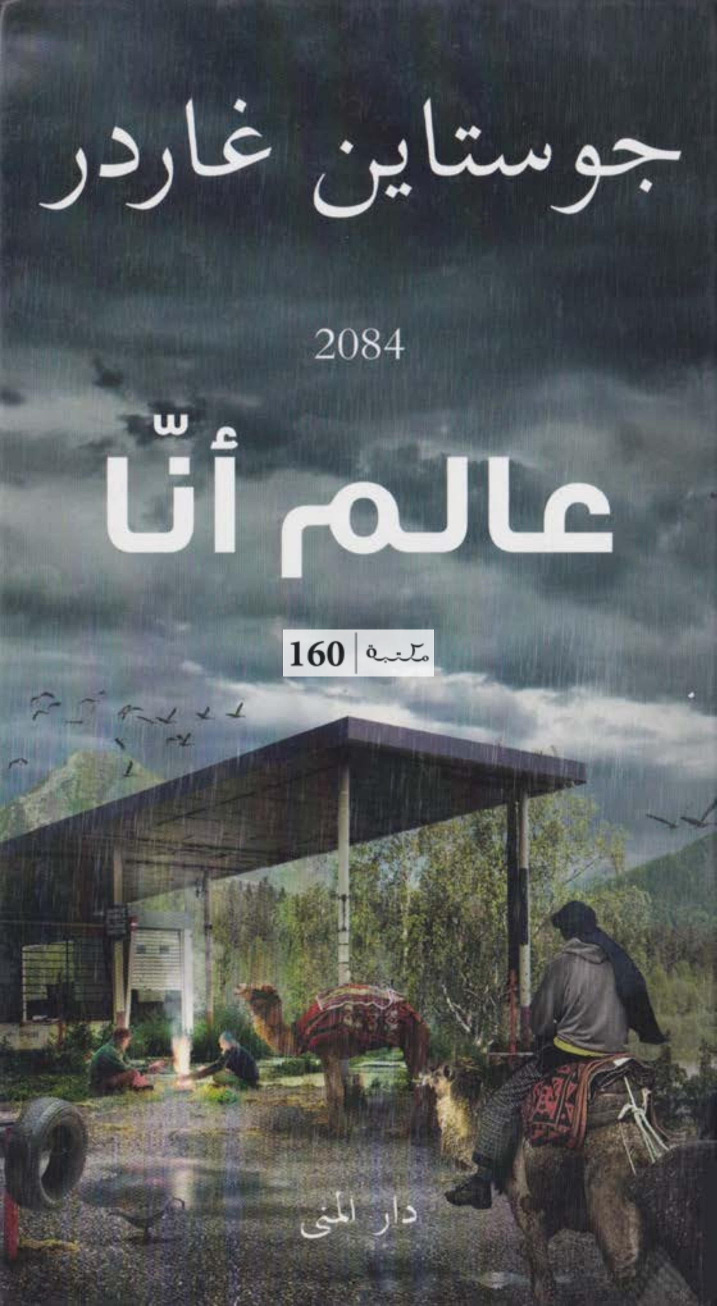

جوستاين غاردر
2084
عالم أنّا
مكتبة 160
دار المنى

جوستاين غاردر

عالم أنّا

أسطورة حول المناخ والبيئة

النص العربي: مدني قصري

دار المنى

ISBN: 978-91-87333-32-3

Original title in Norwegian: Anna – En fable om klodens klima og miljö
Published with a translation grant from Norla
Printed at ScandBook Falun, Sweden 2015

www.daralmuna.com

الصعود بمركبة الجليد

لن تنسى أنّا، مهْما بعُدَت ذكرياتُها عبْر الزمن، عائلاتِ البلدة وهي تصعَد على مركباتِ الجليد إلى شاليهات المرعى الجبلي، في مساء الواحدِ والثلاثين. لقد فَرْجَنَ الناسُ الخيولَ وزيّنوها للعام الجديد، وعلّقوا على مركبات الجليد جلاجلَ ومشاعل تضيء طريقَهم حين يدمس الليلُ ويشتدُّ سوادُه. ولم يفُتْهُم في بعض السنوات أن يرسموا بالمدّكةِ قبل الأوانِ دربًا سالكًا لتفادي سقوطِ الخيول في الطريق المعفّر. لكنهم كانوا في كل سانت سيلفستر يذهبون إلى الجبل، ليس بالزلاجات أو درّاجات السكوتر وإنما بواسطة مركبات الجليد التي تجرّها الأحصنة. لأنّ عيد الميلاد كان ساحرًا، كان أسطورةَ الشتاء الحقيقية، كان ذلك الصعود إلى شاليه المرعَى الجبلي.

في مساء العام الجديد يصير كلُّ شيءٍ مختلفًا. يلتقي الأطفالُ والكبار في خليطٍ فوضوي يجاوز لمرّةٍ في السنة حدودَ الزمرة العائلية تجاوزًا كاملا. ففي سهرةٍ واحدة فريدة يَخرجون من عام ليدخلوا عامًا جديدًا. يجتازون حدودًا غير مرئية، بين ما كان وبين ما سوف يكون. عامٌ سعيد! وشكرًا للعام الذي ولّى!

تعشق أنّا عيدَ رأس السنة هذا، لكنها لا تعرف ما الذي تُفضّله فيه: أهو الصعودُ إلى مرعَى الجبل للاحتفال بآخر بقايا العام القديم، أم هو النزول نحو العام الجديد، متدثّرةً بغطاءٍ من الصوف، وقد غلّف كتفيها دفءُ ذراعِ بابا، أو ماما، أو واحدٍ من سكان البلدة.

لكن في عام سنواتها العشر تلك، أقبل آخرُ يوم من أيامِ كانون الأول من دون ثلوج، إذ خلت منه الهضبةُ والسهل على السواء. لقد غرس الجليدُ مخالبَه في المنظر الطبيعي منذ وقتٍ طويل، لكنَ الجبل، باستثناء بعض ركامات الثلج هنا وهنالك، كان خاليًا من الثلوج. فحتى قمّته المهيبة نفسها تجرّدت بلا خجلٍ من معطفها الأبيض، وتعرّت عريًا كاملًا في قلب الهواء الطلق.

كان الكبارُ يتهامسون بـ «ارتفاع درجات حرارة الأرض» و»التغيّرات المناخية»، وقد سجّلت أنّا هذه العبارات، ولأول مرّة في حياتها أحسّت أنّ العالم لم يكن في حالته الطبيعية.

كان الذهابُ إلى الجبل للاحتفال بليلةِ رأس السنة أمرًا لا مناص منه، وكانت الوسيلةُ الوحيدة للوصول إليه في تلك السنة هي الجرّار. وفوق ذلك كان لا مفرّ من أن تتم زيارةُ مرعى الجبل أثناء النهار، لأن الليل من دون ثلجٍ سيكون مُغرقًا في عتمةٍ موحشة لن يرَوا فيها أبعد من أنوفهم. وحتى المشاعل لن تفيدهم إلا قليلًا. ناهيك عن أن منظر المشاعل من على جرّارٍ أو مقطورة ليس سوى مشهدٍ مضحكٍ ومثير للسخرية!

في وقتٍ مبكر من طلوع النهار تدحْرجَتْ خمسُ جرّارات نحو الجبل بسرعة السلحفاة عبر غابةِ أشجار البتولا، حاملةً أشياء طيّبة للأكل والشراب. كان عليهم في كل الأحوال، سواء أقبل الثلجُ أم لم يُقبل، أن يُقدّموا نخبًا للعام الجديد، وربما أن يلعبوا قليلًا في المرج الذي يغطيه الجليد.

في هذا الوقت لم يقتصر حديثُ الناسِ على غياب الثلج وحده.

ففي أثناء الاحتفالات السابقة رأوا حيوانَ الرّنّة بالقرب من المزارع، مرّتين أو ثلاثًا، وكانوا يقولون من بابِ التسلية إنّ بابا نويل ربما نسِي بعضَها بعد أن وزّع هداياه.

سجّلت أنّا أن قصةَ حيوانِ الرّنّة هذه مخيفةٌ وحالةٌ تُشغِل البالَ كثيراً. لم يحدُثْ أن هبطت هذه الحيوانات لغاية البلدة. ففي إحدى المزارع حاول الناس أن يُطعِموا بهيمةً فزعة، وقد ظهرت صورةٌ لهذا المشهد في الجريدة عنوانها: «حيوانات الرّنّة البرية تغزو القرى العالية»....

في ذلك اليوم الأخيرِ من كانون الأول انطلق موكبٌ من الجرارات في طريقه إلى الجبل، وفي أول مقطورة فيه رِكبت أنّا وحفنةٌ من أطفالٍ آخرين. فكلما صعّدوا أكثرَ صار مظهرُ الطبيعة مثل الزجاج، فلا شك أن المطر قد هطل قبل أن يأتي البردُ ويوقِفَ كل ما كان يجري فوق الأرض. وقد لمحوا هيكلَ حيوانٍ على جانب الطريق فتوقفت كل الجرارات. كان ذلك الحيوانُ رنّةً جمّدها الجليد، وقد شرح أحدُ الرجال أنّ الرّنّة ماتت بسبب غيابِ الطعام.

لم يسَعْ أنّا أن تفهم كل شيء من حولها، بيد أنها ما لبثت، بعد مرور بعض الوقت، أن أدركت بعد أن صاروا في أعلى الجبل، أنّ المنظر الطبيعي برمّته قد صار جامدًا. كان بالإمكان أن ينتزعوا من مخالب البرد ولو حجراً صغيراً أو بقايا نبتة. وتجاوزوا بريفاتنيت، وتوقّفت الجرارات الخمس مرّة أخرى، بل وعطّلت محركاتِها أيضًا. وقد أيقنوا أنّ سطح البحيرة آمنٌ، وفي الحال اندفع نحوها الرجالُ والأطفالُ معًا. كان الجليدُ شفّافًا، وإذا بالفرحة تنتقل من بعضٍ إلى بعضٍ كلما

رأوا سمكَ السلمون المرقط وهو يسبح فوق ذلك الغطاء الجامد. وعلى البحيرة حضَرتْ الكُراتُ ولُعبة الكرات والعصا، وزلاقاتُ التزحلق الصغيرة. لكنّ أنّا ظلت تمشي فوق الضفة وتفحص نباتِ الخّلنْج. وتحت غشاءٍ رقيق من الجليد لمحتْ الطحلب وبهقَ الحجر والكرامين السوداء وعنَبَ دُبّ الألب ذا الأوراق الحمراء الناصعة. كان المشهدُ رائعًا .حتى خُيّل إليها كأنها وصلت إلى عالم أعظم نُبلًا وأكثر نقاءً. لكنها ما لبثت أن لمحت فأرةً ميّتة... ثم أخرى ليس بعيدًا عن الأولى. ثم لاحت لها تحت بتولةٍ قزِمة جثةُ حيوانِ اللاموس. عندئذ أدركت أنّا فجأة أنّ كل ما كان له طعمُ الأسطورة قد ولّى. كانت تعرف أنّ الفئران وحيوانات اللاموس تقضي الشتاء في الجبل ما بين الأدغال والأحراج تحت زغبٍ ليّنٍ من الثلج. لكنْ من دون زغبٍ ليّنٍ من الثلج ...لم يكن من السهل عليها أن تنجوَ بحياتها.

وهكذا أدركت أنّا سرَّ هبوط حيوانات الرّنّة البرية إلى السهل. فلا صلة لهبوطها ببابا نويل.

الدكتور بنيامين

بعد مرور ستة أعوامٍ كانت أنّا مع والديها في منزلهم الخشبي القديم. في الخارج كان الليلُ قد بسط ستاره منذ ساعات عديدة، وفوق سطح المدفأة ومسندِ النافذة أوقد بابا كلَّ ما توفّر من شموع. إنه اليومُ العاشر من كانون الثاني، لا يفصل فيه أنّا عن السادسة عشرة من عمرها سوى ليلتين ليس إلا.

في قاعة الجلوس جلس بابا وماما يتفرّجان على التلفزيون. يجري المشهدُ في المحيط الهادي، إنه فيلم مغامرات للكبار، في زمن السفن القديمة، ومن يدري فلعله شريطٌ وثائقي حول واحدٍ من قباطنة القرن الثامن عشر؟ ليست أنّا متأكدة من ذلك، لأنها لا تتابع الفيلم إلا عرَضًا.

فهي جالسة إلى طاولة الأكل تنظر من طرف العين إلى صور المحيط الهادي وهي تتقاطر على الشاشة. لقد أمسكت بيدِها مقصًّا كبيرًا وأخذت تقتطع به قصاصاتٍ في كومةٍ من صحفٍ مكدّسة...

في شهر آب دخلت أنّا إلى الصف العاشر، وبعد مرور بضعة أيامٍ فقط في ثانويتها الجديدة تعرفّت إلى جوناس، الطالب في الصف الحادي عشر. وفي وقتٍ قصير ربطتهما صداقةٌ طيّبة، وقد أمضيا بضعةَ أيام يدّعي فيها كل منهما صداقته للآخر، كأنها لعبةُ أدوار، قبل أن يدركا في النهاية أنهما قد صارا صديقين حميمين حقًا.

جلست أنّا وهي تبتسم لحالها أمام كأسٍ كبيرةٍ من الشاي

وقُصاصاتها الصحافية. يا للحياة وتغيّراتها المفاجئة!

لكنْ ثمة شيءٌ كانت قد وطّنت عليه نفسَها، إذْ ها هي ذي تتسلم اليوم خاتمَ عمّتها سونّيفا القديم! كانت تعرف منذ زمنٍ طويل أنها سترِث الخاتمَ حين يصير عمرُها ستة عشرة. فمنذ اليوم ستتسلم خاتمها، لأنّ ماما ستغادر البيت في يوم غد في ساعةٍ مبكرة إلى أوسلو. لقد اجتمعوا حول عشاءٍ بهيّ، وللتحلية جلبتْ ماما من عند الخبّاز قطعةَ حلوى بعجينة اللوز تُزيّنها وردةٌ حمراء. ولم يقدَّم لها الخاتم المرصّع بالياقوتِ الأحمر في علبةِ جواهر قديمة إلا بعد انتهاء الأكل. وقد ظلت تحتفِظ به في إصبعها طوال السهرة، وما انفكت وهي تقصّ صُحفَها تُسدل عينها أربع مرّات أو خمسًا في الدقيقة الواحدة على هذا الخاتم الثمين.

كان عمرُ الخاتم ينوف على مائةِ عام، بل قرون عديدة في ظن البعض. ناهيك عن أنه كان مرصّعاً بسيلٍ غزير من القِصص المثيرة.

ولِعامِها السادس عشر تلقّت أنّا أيضًا الهاتف الذكي الذي كانت تتمناه. لكنْ، أيًّا كانت روعته فهو يأتي في المرتبة الثانية أمام هذه الجوهرة العائلية النبيلة. حتى وإن كان الدخولُ إلى كامل الإنترنت بمجرد لمسٍ للشاشة أمرًا عجيبًا لا يصدّق.

لكنّ أبرزَ ما ميّز ذلك الخريفَ تلك النزهةُ إلى أوسلو في منتصفِ تشرين الأول. لم تأت هذه النزهة عرضًا وإنما هُيّئَ لها قبل شهورٍ عديدة.

منذ طفولتِها والناسُ من حولها يقولون في أحيانٍ كثيرة إنّ أنّا تتمتّع بخيالٍ يقِظ. فكلما سألها سائلٌ فيمَ تفكّرين أخذت في ابتداع

قصصٍ لا نهاية لها، وهو ما لم يره أحدٌ شيئًا آخر غير ثراءٍ فيها. لكنْ ما إنْ أقبل الربيعُ حتى بدأت تَظهر قصصٌ تحسّ بها أنّا كأنها قصصٌ واقعية وحقيقية، بل كانت تعتبِرها من الأشياء التي يتوجّب أن تتفتّح لها وتتأثّر بها، لأنها أشياءٌ قادمة ربما من زمنٍ آخر، بل ومن واقعٍ مختلف.

وانتهى الأمرُ بأكمله إلى اقتناعها بالجلوس إلى بضع حوارات مع طبيبٍ نفسي، وهكذا تواصلت المواعيدُ طوال الخريف. وفي النهاية أعلنت طبيبتُها النفسية أنها تحبّذ مثولَ أنّا لفحصٍ على يد طبيبٍ نفسي في أوسلو. ولم تعترضْ أنّا ولم ترَ في الأمر ما يُخجِلها، بل رأت أنّ امتثالَها للفحصِ على يد طبيبٍ نفسي شرفٌ لها.

لكنّ أنّا اشترطت الذهابَ دون رفقةِ أبويها، وقد اقترح جوناس مرافقتها. بيد أنّ بابا وماما لم يرجعا عن رأيهما، إذ كان أصرّا أن يرافقها أحدُهما. وكان الحلُّ أن تُمنح الحقَّ في أن يرافقها جوناس، وأن تذهب معها ماما أيضًا، شريطة أن لا تجلس معهما في نفس المقصورة.

في بداية الظهيرة وصل المسافرون الثلاثة إلى المستشفى المركزي حيث موعد أنّا مع الطبيب النفسي. لكنْ، في البداية على الأقل، لم يكن لأي أحدٍ من المسافرين الآخَرين الحقُّ في حضور تلك الاستشارة، وقد فهمت أنّا أنّ ماما شعرت بخيبة كبيرة. لقد تمنّت كثيرًا أن تحضر تحليلَ الروح هذا، هي أيضًا. لكنْ كان عليها أن تستجيب لرغبة أنّا وتمكث مع جوناس في غرفة الانتظار.

أعجِبتْ أنّا بالدكتور بنيامين منذ اللحظات الأولى. فهو رجلٌ في

الخمسينات يغطّي رأسَه شعرٌ شائبٌ طويلٌ وقد لُفّ لفًّا إلى الخلف في شكل ذيل الحصان، وفي أُذنه نجمةٌ صغيرة بنفسجيةُ اللون، وفي جيب الصدر من سترتِه السوداء قلمٌ أحمر. وببَريقِ ظريفٍ في عينيه ما انفك الدكتور ينظر إليها باهتمامٍ طوال الحوار.

فما تزال تذكر أوّلَ شيءٍ قاله لها بعد أن تبادلا التحية وأغلقا دونهما البابَ المطلَّ على قاعة الانتظار: أنتم محظوظون، لأنّ الموعد التالي قد أُلغي إلى حين. وهكذا إذن صار أمامهما متّسعٌ من الوقت.

كانت الشمس تسطع في الغرفة المطليّة باللون الأبيض. وقد أخذت أنّا تتطلع إلى أوراق الأشجار الحمراء والصفراء في الخارج. وفي لحظةٍ من لحظاتِ الحديث بينهما لمحتْ سنجابًا يصعد وينزل بسرعة من شجرة صنوبر.

– سنجابٌ مألوف! هتفتْ أنّا على الإثر. لكنْ في إنجلترا لم يعد هذا السنجاب مألوفًا هكذا. السنجاب الأشقرُ أقصاه السنجابُ الأمريكي في أيامِنا هذه.

حملق الطبيبُ النفسي فيها فظنّت أنّا أنّ الطبيب ربما تأثّر بمعلوماتها في التاريخ الطبيعي. وفيما كان يلتفِت في كرسيه المتحرك إذ بها تلمح صورةَ امرأةٍ جميلة في بروازٍ أحمر اللون فوق المكتب. أهي فتاةٌ، أم زوجة؟ قرّرت أنّا أن تسأله، لكن في ذات اللحظة إذا بالطبيب يتحرك ثانيةً فتختفي الصورة، ثم إذا بالفكرة تخرج من رأسها.

سألتْ نفسها حول سير تحليل الطب النفسي. لم يكن من السهل عليها أن تتصور كيف يمكن لطبيبٍ نفسي أن ينظر في داخل رأسها، لكنها تخيّلت أنه سيتناول في البداية أداةً بصرية خاصة ليفحص عينيها، لأن العيون انعكاسٌ للروح. وبأنه سيحاول إرضاءً

للضميرِ أن ينظر في داخل رأسها من خلال الأذنين والأنف والفم، لأنّ أطباء النفس أطباءٌ حقيقيون، وليسوا محلّلين نفسيّين وحسب. لم تكن تعرف إلى أيّ حدٍ صدّقت هذه الهذيانات التي كانت تتحرك قبل كل شيء مثل مقاطعَ من أفلامٍ في رأسها، لكنها شعَرت حقًا بالخوف من أن يقوم بتنويمها تنويمًا مغناطيسيًا حتى يُفرغ روحَها من كل أسرارها. قصةُ التنويم المغناطيسي هذه كانت أنّا تأمل في أن تنجوَ منها، لأنها لا تحب أن تفقِد سيطرتها على ذاتها، أو أن تُجرّ جرًا لأن تفشي كلَّ أسرارها. ففي هذه الحالة تُفضّل أن يستمسك الطبيب النفسي بأدواته بشدة.

لكنّهما اكتفيا بالحديث وحده! لقد سألها الطبيبُ النفسي أسئلةً مهمّة كثيرة، وفي النهايةِ صار الحوارُ بينهما فكِهًا دعِبًا، فتسلّت به أنّا وشرعت تُوجِّه له أسئلةً بدورها. تُرى، ما الذي يُضمره الطبيبُ نفسُه؟ هل يَحدُث أن تستهويه قصصٌ جميلة أحيانًا فيشاطر مَن حوله بها؟ هل حدَث له هو أيضًا أن حلُم بأنه قد صار شخصًا آخر مختلفًا؟ هل فوق ذلك رأى أحلامًا تنبّئيّة؟

بعد مرور وقتٍ طويل لخّص الدكتور بنيامين الحوارَ بينهما.

- أنّا، قال في النهاية، لا أرى إشارة تقول إنك مريضة. بل أراكِ تتمتّعين بحياةٍ خيالية قويّة للغاية، وعندكِ استعدادٌ أقرب إلى الغرابة لتصوّر أوضاعٍ لم تشهديها. ففي فتراتٍ معيّنة قد يُتعبكِ هذا، لكنْ ليس الأمرُ مَرَضًا.

وكان رأيُ أنّا من رأيه تمامًا. كانت على يقينٍ تامّ بأنها ليست مريضة. لكنها ذكّرته من حيث الشكلِ أنها تُصدّق أحلامَها أحيانًا. وأكدت أنها تشعر بأنّ الأشياء التي تفكر فيها والتي تتمثّلها لا تولَد

من رحِم ذاتها، بل تأتي إليها طوعًا.

ومكث الدكتور يهزّ رأسه.

– ظني أني قد فهمتُك، قال. أراكِ قد جُبلْتِ على خيالٍ يقظٍ يفيض عليكِ فيضًا، ومن فرطِ فيضه لا تصدّقين أنّ الذي ترينَه من صُنعِكِ أنتِ حقًا. لكنّ الخيالَ موهبةٌ إنسانية يتمتّع بها كلُّ ابن آدم بمقدارٍ متفاوتٍ قد يزيد عند هذا وقد ينقص عند ذاك. فكل البشر يحلمون، لكنْ ليس كل الناس يذكرون بالضرورة ما يحلمون به. ففي هذا الصدد، يبدو أنك تمتلكين موهبةً نادرة. فأنتِ أثناء النهار تحمِلين معكِ ما تحلُمين به أثناء الليل...

وطرحتْ أنّا بدقةٍ متناهية كل أوراقها فوق الطاولة:

– ولكني في الوقتِ نفسه قد أشعر بأنّ الأحلامَ تأتيني من واقعٍ آخر، من زمنٍ آخر!

ويهزّ الطبيب النفسي رأسَه مرّة أخرى.

– قُدْرةُ المرءِ على اعتناقِ معتقداتٍ مختلفةٍ قدرةٌ راسخةٌ رسوخًا عميقًا في طبيعتنا. ففي كل الأزمنة خَبِرَ الناسُ تجربة الصِّلات مع قوى خفيّةٍ خارقة، مثل الآلهة، والملائكة والأجداد. وقد روَى بعضُهم أنهم رأوا بأمّ أعينهم كائناتٍ خارقةً، أو التقوا بها. ربما تكون القدرة على الرؤية عند البعض أكثرَ حدّةً مما هي عند البعض الآخر. فالأمرُ أشبه ما يكون بالفروق الأخرى عند الناس. البعضُ أقوى من البعض الآخر في لعبة الشطرنج، أو الحساب الذهني. فيما البعض الآخر يغلِبون الجميعَ تقريبًا عندما يتعلق الأمر بالخيال والاعتقاد، وفي هذا النوع تأتي أنّا نيرود، بلا شكٍ، في الصف الأول لا محالة.

مرّة أخرى تتأمل أنّا لعبة الأضواء في أوراق الأشجار الملوّنة.

- في المقابل، لو كنتِ ظننتِ أنّ طنينَ النحل في حديقتكِ من صُنْع السي أي إيه، وأنّ النحلَ يطير من حول بيتِك فقط لكي يتجسّس عليكِ لقلنا إنكِ ربما تعانين من مرضٍ عقليّ خطير.

لكنّ أنّا تقاطعه فجأة:

- وكيف عرفتَ أن في بيتنا حديقة؟

- ألم تقولي ذات يوم لمحلّلتِك النفسية أنك تفضّلين تفادي أيّ تجربةِ لقاءٍ مع رنّة بريّة في حديقتك؟

وتضحك أنّا.

- إنها لم تدركْ شيئًا قط ممّا كنتُ أحدّثُها فيه. لكني أحبّ كثيرًا هذه الحديقة. وأحبّ النحل....

- أصحيح؟

- النحلُ هو الطبيعة، مثلك ومثلي. بالطبع لا تتحكّم فيه السي أي إيه، بل هو يتحرك وفقًا لجيناتِه. وظني أيضًا أنه يمثّل بشكل من الأشكال أمّنا الأرض.

- بالضبط، قال الرجلُ صاحب ذيل الحصان. وما تقولينه الآن لا يمكن أن يوصَف بأنه فكرةٌ عوجاء، أو ما نطلق عليه في لغتنا العامية بـ «الهذيان الغريب».

كان الدكتور بنيامين يلقي بين الفينةِ والفينة نظرةً إلى شاشة الحاسوب. وها هو ذا يُعيد الكرةَ فتدرك أنّا أنّ الملف الذي يطّلع عليه ربما تقريرٌ أساسيّ أعدّته طبيبتُها النفسية السابقة.

- هل ثمة ما تخافين منه، أنّا؟

فتجيب على الفور:

- ارتفاعُ حرارة المناخ.

ارتعش الطبيب النفسي الرزينُ قليلا. فهو بلا شكٍ طبيبٌ متمرّس، وهذه هي المرّة الأولى التي يبدو فيها وقد اندهش لجوابٍ من أجوبتِها، وقد أخذ يسألها ثانية:

– ما الذي قُلتِه الآن؟

– أريد أن أقول إني أخاف من التغيّرات المناخية التي يتسبّب بها الإنسانُ. وأخشى ما أخشاه أن نكون نحنُ الأحياء مَن يُعرّض مناخَ الكرة الأرضية للخطر حاليًا، من دون أن نفكر في مصيرِ مَن سوف يأتون من بعدِنا.

انتظرَ الطبيب برهة:

– وهو بلا شك تخوّفٌ حقيقي – تخوف لا يسعني أن أخلعه من على كتفِك. لو قلتِ لي إنك تخافين من العنكبوت لكان الوضعُ مختلفًا. ففي هذه الحالات غالبًا ما نقول هذا هوسٌ، وعندئذ يمكننا أن نلجأ إلى علاجٍ معين وتعويدِ المريض تدريجيًا على ما يخاف منه، مثلا. لكننا لا نعالج مخاوفَ مريضٍ من ارتفاع درجة حرارة الأرض.

تحدّق أنّا في عينَي الدكتور بنيامين وتلقي مرّة أخرى نظرة على النجمة في أذنه:

– هل تعي مليارات الأطنان من ثاني أكسيد الكربون التي أطلقتها البشرية في الغلاف الجوي، فقط في خلال العقود الأخيرة؟

لكنّ الطبيب النفسي ما لبث أن فاجأ أنّا وهو يجيب عن سؤالها من دون أن يفكر فيه.

– ظني أنّ نسبةَ ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي زادت في أيامنا بنحو ٤٠ بالمئة عمّا كانت عليه قبل أن نشرع في إحراق البترول حرقًا مكثّفًا، واستئصالِ الغابات، والشروع في الزراعة المكثّفة

التي نمارسها في أيامنا هذه. لم يصِرْ مستوى ثاني أكسيد الكربون على هذا القدر من الارتفاع منذ ستّة آلاف عام، وأمّا السبب فهو الانبعاثات التي تَسبّب بها الإنسان.

تأثرت أنّا لذلك أيما تأثر. إذْ مهما بلغت هذه المسائلُ من أهمية فليس من الشائع أن يكون المرءُ مطلعًا عليها. لقد رفعت إبهامَها وهي تقول:

– هناك الآن الكثيرُ من غازِ الاحتباس الحراري، بالحجم الذي لا أحد يستطيع أن يقول أيّ العواقب التي سيخلفها هذا الاحتباس على بيئةِ الكرة الأرضية. والأدهى من ذلك أنّ الانبعاثات ما انفكت تتواصل بلا انقطاع...

بسَط الدكتور بنيامين كلتا يديه فوق المكتب أمامه، وفي برهةٍ من الزمن ظل يميل إلى الأمام متأمّلًا سطح المكتب قبل أن يرفع عينيه إليها ثانية. لقد بدا حائرًا مشوّشًا.

– لقد ابتعدنا الآن قليلًا عمّا هو مجالي هنا في المستشفى. لكني لا أخفيكِ أني أغذّي بعضَ الخشية إزاء احتراق الكربون بهذا الحجم وحيالَ العواقب التي يمكن أن يعكسها على الحياة من فوق الأرض. وإنْ كانت هذه الأمور ربما لا تخلو في النهاية من بعضِ العلاقةِ مع الطب النفسي.

ولما رأته يتردّد قليلًا أخذت تشجّعه:

– واصلْ. كلّي آذانٌ صاغية.

فاستأنف:

– سألتُ نفسي إنْ لم نكن نعيش في ثقافة تَكْبُتُ الحقائق الأساسية. أتفهمين ثقافة الكبت التي أقصدها؟

- أظنّ ذلك. كلّما بدا لنا التفكيرُ في شيءٍ بعينه أمرًا مزعجًا سارعنا في الحالِ إلى نسيانه.

- بالضبط. نعم. هذا ما كنتُ أريد قوله.

فجأة أحسّت أنّا بإلهام مباغت، لم تعرف السبب بتاتًا، إذ لم تكن سوى فكرةٍ راودتها فجأة، كأنها انبثقت من واقعٍ آخر، فقالت:

- ماذا كنتَ ستقول لو قلتُ لك أني أخاف من العرب؟

فضحك الطبيب ضحكةً قوية:

- لكنتُ بلا شك اقترحتُ عليكِ أن تقضي بعضَ الوقت أحيانًا مع العرب. ظني أنك لو فعلتِ لكان ذلك هو العلاجُ الأكثر نجاعة.

- هائل...

- لكننا لا نعالج إذن خشيةَ المرضى أمام ارتفاعِ حرارة المناخ. بل لعله خليقٌ بنا أن نسأل أنفسنا إن لم يكن من الواجب أن نبحث عن نوعٍ من العلاج ضد غياب القلق إزاء ارتفاع حرارة المناخ. لأنه ليس محكومًا علينا أن نعوّد أنفسنا شيئًا فشيئًا على هذا التهديد. بل على العكس! علينا أن نبعده عنّا قدر المستطاع.

منذ البداية أحسّت أنّا أنّ الطبيب النفسي يُحدّثها حديثَ الكبار، ولكنْ لم يكن هذا ليزعجها بتاتًا. لقد خاطبها وكأنه يخاطب شخصًا ندًا. بيد أنها شعرتْ ببعض الضيق عندما أراد أن يعرف في نهاية اللقاء إن كانت عضوًا في جمعيةٍ من جمعيات الحفاظ على البيئة. فالسؤالُ لم يكن متوقعًا في عيادةٍ طبيّة. لكنْ، ألم تكن هي البادئة في موضوع التغيّرات المناخية التي يتسبّب فيها الإنسان؟

فأجابت بأنّ لا شيء من هذا في المكان الذي تقيم فيه. فكل شيء من حول المدرسة والعمل تقريبًا مجرد ترقيع للسيارات

والدراجات، وبالطبع سهراتٌ وشرابٌ في عطل نهايات الأسبوع.

– الشابُ الذي جئتِ برفقته، أهو ربما أخوك؟

فتضحك.

– أوه، لا، إنه جوناس. إنه فقط صديقي.

كانت سعيدة وهي تنطق بعبارة "إنه فقط صديقي"

فبادلها الطبيبُ ضحكتَها.

– هل ينشغل جوناس بالمسائل المناخية، هو أيضًا؟

– هو الآن في الصف الحادي عشر وقد اختار الفيزياء، والكيمياء والبيولوجيا. وفي هذه الحالات، كما تعرف، لا يتعلّم الطلاب سوى القليل عن العالم!

– أجل، بالتأكيد.

– مسألة ارتفاع حرارة المناخ ليس لها في الحقيقة صلة تذكر مع التخمينات. فإمّا حفظنا وفهمنا، وإمّا عشنا في الجهل.

– ظني أنّ كل الحق معك، أنا. لن أُفاجَأ إنْ علمتُ أنّ نسبة السكان الذين يفسّرون محصّلة الكربون تقِل عن واحد بالمائة.

أحسّت أنّا بقلبِها يقفز في صدرها. قصةُ محصلة الكربون هذه موضوعٌ سبق وأن تحدّثتْ فيه مع جوناس. وكانت من قبل قد أعدّت بحثًا حول ارتفاع حرارة المناخ عندما كانت في الصف التاسع.

– وأنتَ، هل تستطيع ذلك؟ هل بإمكانك أن تفسّر محصلة الكربون؟ سألتْ.

وعلى هذا السؤال أجاب طبيبُ الروح، خفيفُ الروح هذا، فقدّم عرضًا تمهيديًا، فيما كان يطفئ الكمبيوتر ويجمع أوراقه فوق مكتبه. لقد نطق أوّلًا ببضع كلمات عن ثاني أكسيد الكربون في الطبيعة

الحيّة. فالنباتاتُ تجتذب ثاني أكسيد الكربون من الهواء بوساطة التمثيل الضوئي، وهكذا تُوقِع الكربونَ في فخ الأجسام الحية، بينما يُطلَق هذا الغازُ نفسُه في الهواء من خلال تنفّس الحيوانات وتحلُّلِ المواد العضوية. لقد قصد الطبيبُ بـ محصلة الكربون هذه أولًا ذلك التوازن الملحوظ الذي يوجَد ما بين كميةِ غاز ثاني أكسيد الكربون التي يحملها ثورانُ البراكين إلى الغلاف الجوي وبين الكمية التي تُفسِدها العناصرُ وتقع في النهاية في فخ القشرة الأرضية. لقد كانت هذه الكمياتُ ثابتةً تقريبًا عبر آلاف عديدة من السنوات، وهذه الدورة لم يكن للبشرية أيُّ تأثير عليها، ومن هنا أبعد الطبيب هذه الدورة من حسابات ارتفاع حرارة المناخ. ثمّ واصل حديثه:

- وكل الكربون الذي أمضى ملايين السنين مخزَّنًا في البترول، والفحم والغاز "حُوّشَ" وسُحِب من الدورة. لكن هذا التوازن الدقيق جدًا...

وإذْ بأنّا تنتزع الكلمات من فمه:

...هذا التوازنُ الدقيق جدًا عرّضه البشرُ للخطر بإحراقِ البترول، والفحم، والغاز، وعلى هذا النحو أطلقوا كتلًا من غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي.

- هذا ما كنت أريد قوله، أجل. فحتى وإن كانت كميةُ ثاني أكسيد الكربون التي تُطلَق بسبب النشاطات البشرية لا تمثل سوى جزءٍ صغير مما ينتقل في الدورة الطبيعية إلا أنها تشكل فائضًا متبقّيًا لا تمتلك الطبيعة الوقت الكافي لتخزينه في قشرة الأرض. وهكذا تتشكل في الغلاف الجوي كمياتٌ من ثاني أكسيد الكربون وتظل تتنامَى إلى ما لا نهاية.

- لأن هذه الكميات تتراكم.

- بالضبط. أنتِ تعرفين هذا مثلما أعرفه أنا تمامًا. لو أكلتِ كل يومٍ قدرًا أكبر من السُّعرات التي لا يحتاجها جسمك لتأمين وظائفه فسوف يزداد وزنُك حتمًا. وعلى هذا النحو يترسّب ثاني أكسيد الكربون أكثر فأكثر في الغلاف الجوي.

- وعندئذ إذن ترتفع حرارة الأرض. فكلما ازداد ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي ارتفعت معه الحرارة. وهكذا ينصهر الجليد والمجلدات، وهو ما يزيد الأمور سوءًا، لأن الثلج والجليد يعكسان الجزء الأعظم من نور الشمس، ولكن الوضع مختلفٌ مع البحر والجبل. إذًا تصير الأرض أكثر حرًّا.

- هكذا الأمور بالضبط، نعم. وهو ما اصطلح على تسميته بـ المفعول الرجعي الإيجابي.

- الذي يستطيع أن يصهر مجلدات التوندرا، فتُحدِث انبعاثاتِ الميثان وثاني أكسيد الكربون معًا في الغلاف الجوي. فالميثان أيضًا غازٌ قوي يسبّب الاحتباس الحراري، وهكذا يستمر ارتفاع حرارة الأرض. وهكذا ترتفع كمية بخار الماء في الغلاف الجوي، وهكذا ترتفع الحرارة أكثر فأكثر.

والآن، جاء دور جليد غرينلاند، وربما القطب الجنوبي أيضًا...

يرفع الطبيبُ يده، وتدرك أنّا أنه يريد أن يوقِفها. لكنْ وقد سنحت لها الفرصةُ في أن تقول ما كان يجب أن تقوله فلن تدعها تُفلت منها:

- الاحتباس الحراري قد ينفلِت كليًّا، وفي أسوأ الحالات فقد يرتفع متوسط حرارةِ الكرة الأرضية بستٍّ أو ثماني درجات. وفي هذه الحالة فقد ينصهر مجموع الجليد على هذه الكرة، ويرتفع مستوى

سطح البحر بعشرات الأمتار... ففي أساطير الشمال كان الناس يملكون كلمة مقدّسة لوصف ما يمكن أن تتعرض له الأرض. كانوا يسمون هذه الظاهرة: رانياروك.

نهض الدكتور بنيامين ليستأذن الذهابَ ويرافق أنّا إلى باب الخروج. لكنْ قبل أن يفتح البابَ قال مقترِحًا:

– أليس جديرًا بكما أن تُنشئا جمعيةً بيئية، جوناس وأنتِ؟ إني أفكر لبيئتكِ المحلية في فردٍ من النمور الصغيرة الشرسة. فلا شك أنه أفضلُ شيء يمكنك فعله لكي تعيشي هذا الخوف الذي تشعرين به إزاء الأضرار المناخية. فليس من العافية على المدى البعيد أن تُراكمي في داخلِ ذاتك الخوفَ الذي يملؤكِ من شيءٍ بعينِه. لأن هذا الخوف سرعان ما يُحدث صدامًا، وهنا فالطبيبُ النفسي هو الذي يتحدّث. فإذا كنتُ سأسدي لك نصيحةً فهي أن تُعبّري عمّا تُبطنين. إذنْ خَرِّجي ما بِداخلِك!

يفتّش في أحد جيوبه ثم يمدّ إليها بطاقته الشخصية.

– لا تتردّدي في الاتصال بي، أو في إرسال بريد إلكتروني إذا أردتِ أن تتعمّقي في مناقشة أي أمرٍ من الأمور. لم يعد لديّ أطفال في البيت، لذا لا أرى حرجًا في أن تتّصلي ذات يوم.

وعندما وصلا إلى قاعة الانتظار صافح الطبيبُ النفسي الهادئ يدَ ماما وجوناس. ثم نظر إليهما الواحد تلو الآخر وقال:

– لا أملك سوى أن أشكر لكما إعارتكما أنّا لي. أنتما لا شك محظوظان بمعاشرةِ كائنٍ كهذا في حياتكما اليومية.

ارتبكتْ ماما، فلم تملك سوى أن تعبّر له عن امتنانها. وفي الترام المنحدرِ إلى وسط المدينة سألت عن سرّ النجمة في أذُن الطبيب

النفسي، وكأن أنّا تملك الإجابة على سؤالها. لكنّ ماما وجوناس لا يعرفان ما الذي دار بينها وبين الدكتور بنيامين، لذا كان من السهل أن تخترع أنّا شيئًا تقوله لهما:

- إنه يحمل نجمةً في أُذنِه لأنه أدرك أننا نعيش فوق كرةٍ هشّة، تتحرك في مدارها حول نجمٍ في الفضاء. ولكنّ حالَ الدكتور ليس حالَ كل الناس، فلا يملك الحقَّ في أن يحملَ نجمةٍ بنفسجية في الأذن إلا من فهِموا تلك الحقيقة.

مكثتْ ماما وجوناس فاغرِي الفاهين وهما يحملقان فيها، فأضافت:

- الرجل الناضج لا يتسكّع في الطرقات وفي أذنه نجمةُ من دون أن يملك الحسَّ بأنه يعيش فوق كوكب فضائي.

عادت ماما إلى البيت في قطار العصر، لكن أنّا وجوناس مكثا في المدينة وتفسّحا اليد في اليد في طرقات العاصمة، ولم يقفِلا عائدين إلا في قطار المساء. لقد ذهبا إلى فرونييربارك، وإلى آكر بريج، وزارا دار البيئة في غرينسين حيث مقرات العديد من منظمات البيئة. وفي طريق عودتهما أعدّا مخططاتِ الجمعية التي اتفّقا على إنشائها. وقد رحّب جوناس بالفكرة وباركها.

في البداية سيكلّف جوناس على الخصوص بإقناع عددٍ من المتطوعين. وكان ذلك اقتراحًا من أنّا، لأنها تعرف أن جوناس أكثرُ صِبْيةِ المدرسة وسامةً، وكانت تعتقد أنه لن يجد عناءً كبيراً في تعبئةِ العديد من الفتيات على الأقل. فضحك:

- لكنّنا لن نصنع منهن ناديًا للفتيات.

- بالطبع لا. لكن لو فقط تُوفَّق في جلْبِ فتيات جميلات فلن يكون من الصعب أن تجنّد بعض القُساةِ أيضًا.

أمّا مهمة أنّا الرئيسية فهي أن تعثر في الصحف وفي المجلات والإنترنت على مقالات حول المناخ والبيئة. فلذلك السبب كانت تجمع القُصاصات من الصحف. فقد كثر الحديثُ وطال عن المناخ في الأيام الأخيرة، في أعقاب فشل قمة دولة قطر. وكان عليها أن تفتش أيضًا في اليوتيوب وفي مواقع أخرى في الشبكة العنكبوتية عن فيديوهات وملفات صوتية وأشرطة وثائقية أخرى ملائمة.

وضعت أنّا المقص جانبًا وجلست أمام التلفزيون مع والديها. فيلمُ المحيط الهادي يتحدّث الآن عن القبطان كوك الذي يراقب ما يسمى بعبور فينوس في هذه الجزيرة الفردوسية التي تُدعى تاهيتي. المقصود بالعبور هو عبورُ هذا الكوكب أمام قرْص الشمس، وهي ظاهرة نادرة جدًا، إذ لا تحدث مرّة بعد مرّة إلا في أكثر من قرن من الزمن. ففي زمن القبطان كوك كان من المهمّ رصدُ عبور فينوس في أماكن عدة من الأرض في وقتٍ واحد. لأنه وسيلةُ علماء الفلك الوحيدة لقياس شساعة النظام الشمسي. بيد أن أنّا رأت ما يَمتُّ للرومانسية بصلةٍ من الصلاتِ عند هذا القبطان البريطاني الذي لعله قصَد إلى جزيرةٍ قصيّةٍ في بحارِ الجنوب حتى يقيس مسافة كوكبٍ بعينه أطلِق عليه اسمُ كوكب الحب. ولكنّ الفيلم يشير إلى أن القبطان كوك وطاقمه لم ينشغلوا بنساءِ الجزيرة والرومانسية الحقيقية قدرَ انشغالهم بفينوس

وبالمسافات الطويلة في الفضاء.

انتهت موسيقى ونهايةُ الفيلم لتُفسِحا المجالَ لأخبار المساء: جائزةُ نوبل للسلام تُمنح للاتحاد الأوروبي. لقد حضر إلى أوسلو واحدٌ وعشرون رئيس دولة... اختطِفت رهينةٌ موظفة في الحقل الإنساني في المناطق الحدودية ما بين كينيا والصومال. اسمها إستر انتونسن، وتعمل ضمن برنامج الغذاء العالمي...

تحيّي أنّا والديها تحيةَ المساء وتأخذ قُصاصاتها الصحافية وهاتفَها الجديد، وتصعد إلى غرفتها. فهذا المساء لن تحتاج إلى ضبطِ مُنبّهِ ساعةِ جهازها المحمول، لأن الأساتذة منشغلون في يوم غد بيومِ التخطيط، والطلبة في إجازة. لكنّها وعدت بأنها ستطلب جوناس عندما تفيق من نومها.

كان ذلك اليومُ يومًا مميّزًا. لقد ورثت خاتمَ عمّتها سونّيفا القديم. وتسلمت هاتفًا محمولا، ساطعًا جديدًا سوف يحسِدها عليه نصفُ المدرسة. وقد جَمعت صحفًا قديمةً، وقصّتْ المقالات حول المناخِ والبيئة التي عثرت عليها. وبعد غدٍ سيصيرُ عمرُها ستة عشر! تساءلتْ أنّا ما الذي ستحلم به في تلك الليلة. لأنها تعلم أنّ روحَها ستُرجّح رأسها أوّلا نحو واقعٍ آخرَ حين تستغرِق في نومِها العميق.

المحطّة

تفتح عينيها. اسمُها نوفا الآن. كل شيء يبدو جديدًا ومختلفًا.

في سريرها تتلوّى وهي جالسة، وفي ذات اللحظة ينتشر ضوءٌ خافتٌ من طاولة السرير. وبينما تتمطّط نحو الجهاز يزداد الضياءُ، وعندما تتمدّد والمحطة لصغيرة في يديها تتحول تلك الوحدة إلى نمط التشغيل. على الشاشة كُتِب: السبت ١٢ كانون الأول ٢٠٨٤

ترى محيطَ الغرفة التي نامت فيها. الجدرانُ حمراء مثل الدم. وترى المطر وهو يسقط في دفقات على النافذة الضيقة التي تصعد من الأرضية إلى وطيدةٍ زرقاء تحت مهبط السقف.

يُحدِث الجهازُ صوت «بلينغ» فتظهر على الشاشة صورةُ قردٍ صغير بعينَين مستديرتين. إنه إذن فردٌ من الرئيسات التي تأكد انقراضُها. ففي الطبيعة اختفى هذا القرد منذ زمن بعيد، لأن كل النظام البيئي الملائم لجنس القرود الأمريكية احترق وجفّ نهائيًا. ولكنْ ها هو ذا القرد الذي يعيش في الأسر يموت أيضًا. وا أسفاه. وا حزناه!

يُسمَع صوتُ «بلينغ» مرة أخرى. إغوانةٌ من أمريكا الوسطى، يُعلَن أيضًا عن موتها.

تحس أنّا بالحرارة في وجنتيها. ولكنها بلا مقاومة. لأن المحطة المحمولة تباغتها مرة أخرى فتُظهر صورَ ظبية إفريقية. فالظباء الآن منقرضة حسب بيانات الوحدة الدولية للمحافظة على الطبيعة. كانت هذه الظبية أيضًا تعيش في الأسر. قطعانُ الظباء السخية

وبقرُ الوحش والزرافاتُ التي كانت فيما مضى تمرح وتنمو في ما يسمى السافانا الإفريقية، لا أحد رآها منذ جيل كامل. فمع آكِلات العشب اختفت أيضًا المُفترِساتُ الكبرى. هنا وهنالك في حدائق الحيوانات عاشت العديدُ من المُفترِسات وآكِلات العشب، ولكنها في الأسر تنطفئ لا محالة.

لقد أنزلت أنّا منذ فترة طويلة تطبيق الأنواع المنقرضة الذي يُطلِعها بين ساعة وساعة على فقدان الأنواع النباتية والحيوانية. حسبها، بطبيعة الحال، أن تلغي التطبيق وتستبعد كل ما يحدث في العالم من حولها، لكنها تقدّر أنّ من واجبها بصفتها كائنًا بشريًا أن تتابع التدمير الجاري في الموئل الأحيائي الجغرافي على الأرض بأرجائها. فهي غاضبة. وساخطة. ولكنْ بلا طائل. إذ ليس في وسعها أن تفعل شيئًا.

السبب الرئيسي في انقراض العديد من النباتات والحيوانات مرده إلى ظاهرة الاحتباس الحراري التي بدأت قبل بضعة عقود من الزمن تهيج وتتفاقم. فلو رجعنا مائة عام فقط إلى الوراء لرأينا أنّ هذا الكوكب كان جميلًا رائعًا. ولكنْ في خلال القرن الذي عاشت هي فيه فقَدَ الكوكبُ الكثيرَ من سحره. فالعالمُ لن يصير كما كان مرّة أخرى. لقد أنهت الإنسانية منذ سنوات انبعاثاتها من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي — يا لها من حماقة! - ولكنّ إزالةَ غازات الاحتباس الحراري أمرٌ بات متعذرًا. لقد مرّ كوكبُ الأرض بنقاطِ تحوّلٍ رئيسية عديدة، وليس البشر هم مَن يتحكمون في ظاهرة

الاحتباس الحراري في أيّامنا. وإنما هي المسارات الأرضية التي تتابع الآن مجراها بلا هوادة.

تلامس الشاشة بإصبعها وتذهب إلى إرث كوم. وفي الوقت نفسه تُشغِّل الشاشة الكبيرة في مهبط السقف من فوق سريرها. وتحاول أن تنتصب أكثر فوق سريرها، وتُلقي بعض النظرات المشتّتة إلى الكرة الأرضية التي تقف عليها.

أيُّ طقسٍ يسود الآن في القطب الشمالي؟ ترفع عينيها إلى زرقة السماء الساطعة في صورة المحيط القطبي المتجمد، وباللون الأزرق تمتلئُ الغرفةُ بكاملها. لقد تحرّر القطب كليًا من كتل الجليد، واليوم لا تكاد الريح تهبّ فوقه إلا نادرًا. بضعُ تجاعيد على البحر تشهد أننا أمام صورة متحركة، وهنا ترى أيضًا العوّامة التي ترتكز عليها الكاميرا. آخرُ معلومةٍ عن دبٍّ أبيض في الطبيعة تعود لسنوات عدة، ولكن ما تزال بعضُ الأفراد منه تعيش في الأسر حتى هذه الساعة.

وما حال المحيط الهادي والمحيط الهندي؟ العديد من الجزر المرجانية صارت الآن تحت الماء، وكم من دول غرقت تحت الماء. بضع معالم في البحر فقط تشير إلى مواقع الأرض الصلبة السابقة. وفوق بعضها توضح لوحاتٌ مكتوبة أسماءَ تلك المواقع: مالديف، كيريباتي، توفالو. هنا وهنالك ترى بناياتٍ من العاج تعلو مترًا أو مترين فوق سطح الأرض البلورية. إنها معابد قديمة، ومساجد، وبعثات مسيحية. حضارات مغمورة، جنّات الأمس القصية.

وماذا فوق التوندرا السيبيرية؟ كلّ شيءٍ يغلي فيها غليًا. تختار بضعَ كاميرات لأماكن سبق وأن رأتها، وتُمعِن النظر في شاشة الفيديو،

فيتراءى لها الميثانُ المنبثق من الجليد والمستنقعات. حتمًا سترتفِع الحرارةُ أكثر فأكثر!

تُلامس شاشة المحطة وتحصل على ملخص حديث المعلومات، أُنجِز من صورٍ حديثة لأقمار صناعية. يدور مجسّم الكرة الأرضية ببطء. ألم تعد القاراتُ أصغرَ قليلًا عمّا كانت قبل سنوات قليلة؟ ألم يغمر البحرُ بعدُ بعضَ المدن الساحلية في العالم؟ فعلى أيّ حالٍ صار الغطاءُ الجليدي فوق غريلاند والقطب الجنوبي أصغرَ قليلًا عمّا كان عليه في العام الذي مضى.

وكيف حالُ أصقاعها هي؟ تعثر على كاميرا مركزية في برنامج هاردانجرفيدا. على الرغم من أن السنة متقدمة فما يزال هنالك أوراقُ فوق أشجار البتولا. ومن فوق الأشجار يطير النورس والغربان. وتُكبّر حجمَ الصورة على الخلنج وأرض الغابات، فتظهر فأرةُ حراجٍ فجأة ما بين جذوع أشجار الحور البيضاء، ثم إذ بثعلبٍ أشقر يظهرُ فجأة وينقضّ على الفأرة انقضاضًا.

ما زال هنالك أشياء في الطبيعة، ولكنها ليست سوى بقايا من التنوع البيئي. إنه فتاتٌ من بقايا الأغنياء. كلُّ ما هو باقٍ لا شك طيّبٌ، لكنّ ذلك وحده لا ولن يرضيها. فهي تقدّر أنّ من حقها أن تظل الطبيعة التي تعيش فيها على حالها، سليمة كاملة. فليس محكومًا عليها أن تكون مثقوبة مثل جبنة سويسرية.

تقرّر أن تمضي بقيةَ اليوم في مشاهدة صورٍ وأفلام عن بداية

القرن. ففي بضع ثوانٍ تضع فلتراً (مرشحًا)، وتختار كحد أقصى يوم ١٢ كانون الأول ٢٠١٢. وهو ما يتطلب رقابة صارمة. فابتداءً من الآن لن يسعها أن تُحمِّل إلا المواقع المُنزلة على الإنترنت قبل هذا التاريخ. إذن ستمضي بقيةَ اليوم في الْتِهام الصور والفيديوهات التي تتناول الأراضي المهجورة من الكرة الأرضية قبل ١٢/١٢/٢٠١٢

فأيُّ روعة تلك التي كانت تملأ مناطق كثيرة من العالم في تلك الفترة، وما أروع اليوم الذي يُطل عليها الآن! ففي خضمّ تدفّقِ الصور تُطفئ تطبيق الوحدة من أجل المحافظة على الطبيعة وتحديثاته المتتالية. تستطيع غدًا أن تفتح البرنامج ثانية، حتى وإنْ تدفّقت «البلينغات» بسرعة أكثر في تلك اللحظة، لأنها لا تطيق مجرد التفكير في انقراض رخويات أو فيولين من دون أن تعلم بانقراضها. فهي لم تختر ١٢/١٢/٢٠١٢ كحدّ بالصدفة. لأنها تعرف أنّ في هذا التاريخ تقريبًا بدأت الأنظمة البيئية تنهار بصورة نهائية. ناهيك أن هذا التاريخ يُذكرها بذكرى ميلاد أمّ جدّتها.

تشرع في تصفّح برنامج أركيف وتبدأ بشبيهات الإنسان. تشعر بالقشعريرة في بطنها منذ ظهور صور الشمبانزي الأولى. تضحك لفرط غرابة مظهر هذه الكائنات. لأنها بهائمُ وفي الوقت نفسه تشبه الإنسانَ كثيراً! ناهيك أنها تتمتع بفرديتها الذاتية، فهي شخصيات يختلف بعضها عن البعض الآخر كاختلافنا نحن البشر. بعض أفرادها الصغار تتسلى في الأدغال، وتلعب كما يلعب رجالٌ صغارٌ تقريبًا. من يصدّق أن كائنات مميزة كهذه عاشت ذات زمنٍ على كوكب

الأرض! في الشاشة الكبرى المعلقة في السقف تشاهد أيضًا مقاطع من فيديوهات الغوريلا. فهذه الحيوانات التي تشاهدها الآن تشكل الجسر الذي يربط البشر بباقي الطبيعة. بعضُها يبدو سوداويًا، ربما لأنها تدرك بصورة ما أنها آيلة إلى الانقراض هي الأخرى.

فهي اليوم، على أي حالٍ، لم تعد بيننا، ولن تعود ثانية إطلاقًا. تشاهد بعضَ الفيديوهات عن إنسان الغاب هذا، ذي الشعر الأشقر. فهو من بورنيو ومن سومطرة. هُوبْلا! ها هي ذي تقف شاهدةً على أمّ تلد طفلها! الصغيرُ يبدو في صحة جيدة ومليئًا بالحيوية، ولكن ربما هذا المولود واحدٌ من إنسان الغاب وقد وُلِد في الحرية.....

فعندما كانت أمُّ جدّتها في ريعان شبابها كانت تعيش مع هذه التسجيلات، لأن تاريخها يعود للفترة التي عاشت فيها، ثم بقيت بعد ذلك في برنامج أركيف خلال كل السنوات التي مضت منذ تلك الفترة. ولكن عُلا، كما يسمونها، تحدثت أيضًا مع أناس قاموا برحلات السفاري في إفريقيا، ورأوا قردة كبيرة بأم أعينهم. في الخارج. في الطبيعة. هذا لن يحدث مرة أخرة أبدًا. فلن يصدف أن يرى أحدٌ شمبانزي أو غوريلا حيّة في قلب الطبيعة.

تشاهد أفلامًا. وتجلس جلسة مريحة وهي تعلم أن أمامها خيارًا من آلاف الأفلام الرائعة عن التاريخ الطبيعي. وتميل إلى واحد من أفلام البي بي سي، مع ديفيد أتنبوروغ كدليل فيها. ويفغر فوها

وتتسمّر عيناها في هذه الصور الكبيرة الرائعة من عالمٍ أدبر ونأى.

تشاهد مقاطع من أفلام رائعة الجمال عن حياة النمل من حول الأرصفة المرجانية الكبرى. فترى المرجان والرخويات والسرطانات. والطحالب والضفادع والأسماك بكافة ألوان قوس قزح. وكأن إلهًا طلى بيده كلّ فرد من أفراد هذه الأسماك الملوّنة. لكنها تعي تمامًا أنّ كل ما تراه على هذه الشاشة الكبيرة قد انقرض إلى الأبد. لم يعد هناك أرصفة مماثلة – بالطبع لا، توقّفي إذن! – وهذا الزخمُ المتعدد الألوان من الأسماك المرجانية لم يعد له أثرٌ في أيامنا إطلاقًا. صار المحيط حامِضًا جدًا، لأنه أجبِر على مدى أكثر من قرن من الزمان على ابتلاع ملايين الملايين من أطنان ثاني أكسيد الكربون. ها! كأن عفريتًا صغيرًا أقسم في إحدى الزوايا: الآن كفَى! لتَخنقْ كلّ نيران البترول والفحم هذه الثروة من الأنواع الصاخبة!

ترفع عينيها إلى الشاشة وتجد نفسها فيما كان يسمى فيما مضى بغابة الأمازون الكبرى، التي استحالت اليوم إلى أكبر سافانا في العالم. تشاهد فيلمًا قديمًا مثيرًا حول الفراشات. برسومها الواخزة بعض الأنواع من فرط رقتها تثير القشعريرة، وهي تعرف تمامًا أن معظمها لا وجود لها إلا بين الكمّ الهائل من الميغابيت في مخزونات المعطيات.

لم يسبق لشاشات العالم أن عرضت هذا القدر الهائل من صُور الطبيعة العظيمة. ولكنْ لم يسبقْ أن كان ما تبقى حقًا من تنوّع الطبيعة الحية فقيرًا كما هو فقير حاليًا.

تقرأ على الشاشة الكبيرة ما كانت تكتبه الصحفُ ومواقعُ

الإنترنت في بداية القرن. فكل ما كان على النت في ذلك الوقت يظل متاحًا ، فكل الكلمات وكل الصور وكل الموسيقى تمكث في الغلاف الكهربائي. ففي إحدى المقالات تقرأ: «لا نملك الحق إذن في أن نتخلى عن أرض أقل قيمةً من الأرض التي عشنا نحن أنفسنا عليها ...» بوفْ ! وتنتقل إلى مقالة أخرى: «أتخيل حزن أحفادنا اليائس وحزن أبناء أحفادنا. لأنهم فقدوا موارد، مثل الغاز والبترول، ولأنهم فقدوا في آنٍ التنوع البيئي...»

تهز رأسها. ما أكثر التحذيرات!

تتساءل إن كانت عُلا كتبتْ شيئًا عندما كانت في شبابِها. فإن هي أرادت الوصول إلى نتائج بهذا الفلتر لا بد من أن تفتح الصفحةَ قبل أن يصير عمرُها ستة عشر عامًا. وتبحث أنّا عن «أنّا نيرود». وتحاول بعدة محركات للبحث، وتحصل في النهاية على نتيجة على الشاشة ! النصُّ مكتوبٌ في صورةِ رسالة. رسالةٌ إليها خصيصًا، لِنوفا.

عزيزتي نوفا، هكذا كُتب. فتقفز، ولكنها تواصل القراءة: *لا أعرف بماذا تشبّهين العالم في الساعة التي تقرئين فيها هذه الأسطر. أما أنتِ فلا شك أنك تعرفين ...*

كيف يمكن هذا؟ الرسالة مؤرخة في ١١ كانون الأول ٢٠١٢، ليلة السادس عشر من عمر أمّ جدتها عُلا إذن، وقبل يوم واحد فقط من الأجل الذي حدّدته وفرضته. ولكنْ كيف وسِع عُلا أن تكتب قبل أكثر من خمسين عامًا قبل ولادة نوفا؟

تتحقق من الفلتر. فهو سليم. والمحطة لا تستقبل إشارات بتاريخ ما بعد ٢٠١٢/١٢/١٢. كيف وسع عُلا أن تعرف أنها بعد أكثر

من خمسين عامًا سيكون لها حفيدة صغيرة اسمها نوفا؟ فهل كانت نافذةَ العقلِ أم عرّافة؟ وهل هي كذلك حتى هذه الساعة، ربما؟

تغادر سريرها وتسير في الغرفة. تطفئ الشاشة الكبرى في السقف، وتظل المحطة الصغيرة في يدها. وتعرض ملفًا صوتيًا يعود تاريخه أيضًا لبداية القرن.

صوتُ رجلٍ يصرّح: «...ابتداءً من نهاية القرن الثامن عشر أغرتنا المحروقاتُ الأحفورية كما أغرتنا عبقرية مصباح علاء الدين. وقد همس الكربون «دعونا نخرجْ من المصباح!» لكننا انسقنا وراء الإغراء. والآن نحاول أن نرغم العقل على العودة إلى قلب المصباح...»

المطر ينقر النافذة. تجلس تحت مهبطِ السقف وتحاول أن تنظر خارج الغرفة. وبين القطرات تلمح الشارع الرئيسي، الذي كان به فيما مضى محطةُ بنزين. ما زال بالمكان بعض الأنقاض من الباطون والألواح الحديدية الصدئة. فالسيارات نادرًا ما تمر في الوادي، ولكنّ الأراضي غالبًا ما تعبُرها القوافل العربية بالجِمال العادية، والجِمال وحيدةِ السنام... إفريقيا الشمالية، والشرق الأوسط لم يعودا قابلِين للاستيطان، وآلاف اللاجيئن المناخيين يهاجرون هذه المنطقة من العالم نحو الشمال، لكي يستقرّوا في شمال غرب النرويج.

تجلس القرفصاء وتُلصق وجهَها بالنافذة لتستبين المنظر أكثر فأكثر. فترى في الأسفل تحت المطر مجموعة صغيرة من الأفراد تقف مع ثلاثة جِمال مبرذعة. وترى دخانًا ينبعث من نار مخيّم.

الأضواء الزرقاء

أفاقت أنّا من نصف نومِها على أصواتِ صفّارات الإنذار الصادرة عن سيارة نجدة. ترمّش عينيها قليلًا وترى الأضواء الزرقاء وهي تمزّق ظلام الغرفة. لكنّها لم ترغب في أن يوقظَها شيءٌ في تلك اللحظة. لأنها كانت تحلم بشيء مُهِمّ، وكان عليها أن تعود إلى حُلمِها لكي تحلّ مسألة عالقة...

ليست هي المرة الأولى التي تَسحَب فيها سيارةٌ من سيارات النجدة النومَ من عينيها على حين غرة. فقبل أسابيع قليلة فقط قضى جوناس ليلةً في ما كانا يسمّيانه غرفة الوسائد. لقد سُمّيت الغرفةُ بهذا الاسم لأنّ الكنبة فيها كانت مغطّاة بتِلّة من الوسائد. لقد طرّزتها العمةُ العجوز سونّيفا، وكان كلُّ طرْزٍ فيها يروي أسطورةً مشهورة. ففي طفولتها ما انفكت أنّا تتقمّص وسادةً من تلك الوسائد، أو أيَّ شخصية صغيرة من شخصيات الوسادة الواحدة. وعندما كانت أصغرَ سنًّا، كانت ماما أو بابا يروِيان لها قصةً من تلك القصص الأسطورية. ففي كل ليلةٍ من الليالي تقريبًا كانا يسردان لها قصة من قصص تلك القصص الخرافية. ولم يسعها أن تميّز بين كلمة «أسطورة» و«وسادة» إلا بعد مرور سنوات عديدة.

ولكن في ذلك اليوم، عندما قضى جوناس ليلته هنا، أيقظتهُما من نومهما في عزّ منتصف الليل صفاراتُ إنذار سيارات نجدة لا تعدّ ولا تحصى، ولم تكتفِ تلك السيارات بالمرور على الطريق كعادتها وإنما

توقفت إلى الأسفل من البيت قليلا. لم ترَ أنّا وجوناس حاجةً لأن يوقظ كلٌّ منهما الآخر. فقد كادا يصطدمان بالردهة قبل أن يهبطا السلَّمَ ويخرُجا إلى الشارع في عز ظلام الليل. وبعد ثوانٍ هبطت ماما وبابا على إثرهما بأقصى السرعة.

وفي الإثرِ بدأت سياراتٌ أخرى تتدفق من طرفَي الوادي: سياراتُ الشرطة وسياراتُ الإسعاف وسياراتُ الإطفاء. وفي ومْضات الأضواء الزرقاء الحادة لمحوا ملامِح شاحنةِ صهريج انزلقت على الجليد وانقلبت. ولمّا وصلوا إلى الطريق أوقفتهم الشرطة التي كانت قد بدأت في إغلاق المنطقة. وقد علِموا في وقتٍ لاحق أن خطر الانفجار والحريق كان عظيمًا، لأن الشاحنة انقلبت وهي تحمِل آلاف اللترات من البنزين، وشرع طاقمُ الإطفاء في صبّ رغوةِ الماء عليها. وقد صرّخ فيهم أحدُ ضباط شرطة المدينة، بما يشبه الغضب:

- عُودوا إلى بيوتكم! عُودوا من حيث أتيتم، تبًّا لكم، هيّا!

فامتثَلوا لأمْرِ الشرطي وعادوا الهوينى إلى المنزل. في البداية مكثَ جوناس وأنّا في الحديقة يتابعان المشهد، ثم أمضيا الليلة في المطبخ يستمعان إلى الأخبار على الراديو، فيما كانت ماما تعدّ الشوكولاته وبابا يدخّن الغليون أمام الموقد...

لكنْ هذه المرّة، لم تسمح أنّا لنفسها بأن تفيق من نومها على صفّارات الإنذار من أي سيارة نجدة منعزلة. كانت في مهمّة في عالمٍ آخر. تؤدي فيه خدمة. ولذا فما لبثت أن غاصت في النوم مرة أخرى وفي الحالِ عادت إلى حلمها.

عُلا

تسمَع طرقًا على الباب، ثم إذا بشيءٍ يبدو كأنه ينزلق إلى الغرفة. فتلتفت وترى أنّ الطارق عُلا. عُلا التي ترتدي ملابس الصباح... رداءً أزرق.

تجلس نوفا على حَرْفِ السرير وتتفحّص السيدة العجوز. فتتبيّن شيئًا عجيبًا غريبًا، وجهُ عُلا مستدير وصغير، تعلوه التجاعيدُ قليلا. فاليوم يومُ عيد ميلادها. اليومَ صار عمرُها ثمانٍ وثمانين عامًا!

هناك شيء غريب في وجهها. رجفة تسري في جسدها. أليست هذه هالة من قطيعة وتحوّلٍ تحيط بالسيدة العجوز؟

إنها تَحمِل في بنصِرِها ياقوتةً قديمة حمراء. ثمة شيءٌ خفِيّ في هذا الخاتم. أمُّ جدّتها تقِف في الغرفة، مثل رسولٍ آتٍ من زمنٍ آخر. وبإصبعين تملؤهُما التجاعيدُ تقرِص الحَجر الكريم الأحمر.

– أراكِ تفكّرين في الياقوتة، أليس كذلك يا نوفا، قالت السيدة العجوز. فتومِئُ نوفا بنعم. عُلا تُتقن قراءةَ الأفكار. في أفكارها هي، على أيّ حال.

تُحضِر السيدةُ العجوز كرسيًا ذا قضبانٍ من أمام المكتب وتجلس أمامَها وجهًا لوجه.

– اليوم سأحدّثكِ عن الطيور التي كانت تعيش في الجبال في تلك الأيام. إني أسمع إلى الآن أغنيةَ أبو الرؤوس المزمارية الحزينة.

لكنّ نوفا تشعر ببعض الارتياب. هل هي ترغبُ في الاستماع؟ أتملك قوّةَ الإصغاء إلى هذه العجوز؟ وبكثيرٍ من المرارة تجيب بصوف منخفض:

– لا شيء يلزمك بأن تقُصّي عليّ أيّ كلام. يكفي فقط أن تقولي لي كيف يمكن لكل هذه الطيور أن تعود من جديد.

ترفع عينيها في أمّ جدّتها. ويشهد وجهُ المرأة العجوز عن حزنٍ عميق في روحها. أو عن غضبِها، ربما الأمرُ غضب.

لكن نوفا لا ترحم.

– ثم إني أريد أن تعاد إليّ القِردة الكبيرة، والأسود والفهود. أريد أن تعود إلى مستقرّها، كلها أيًّا كان عددها. ليس هذا بالصعب فهمه. هنا أريد عودة الدب والذئب. وعودة ببغاء البحر الغريب، أقول، وبطة الصخور والكورلي بلونه الرمادي، لا تنسيْ هذا! وعنب الدب الألبي، وفيرونيكة جبالِ الألب، وحوذان المجلدات والصفصاف العشبي. كان الصفصاف العشبي شجيرة بالفعل، حتى وإن لم يزد علوّه عن خمسة سنتيمترات، أكنتِ تعرفين ذلك، أم كان مجرد كلام كنتِ تخترعينه؟

تشعر السيدة العجوز بقشعريرة في ظهرها:

– ولكنْ يا نوفا...

– أتعرفين ما الذي أريده؟ أتريدين ان أقوله لك؟ أريد أن يعاد إليّ نحو مليون نوع حيواني ونباتي. لا أكثر ولا أقل يا أمّ جدتي. أريد أن أشرب الماء نقيًا من الحنفية. أريد أن أكون على شاطئ النهر ومعي قصبة صيد. ثم أريد أن ينتهي هذا الطقس الشتوي المشرَّب بالسكّر.

- نوفا، كفَى يا نوفا!

- أقول فقط إني أريد أن أعيش في عالم رائع كروعة العالم الذي كنتِ تتمتّعين به لمّا كنتِ في مثل سني. وهل تعلمين السبب؟ لأنك تدِينِينَ لي به!

- كفى، يا نوفا!

- أم أنك تفضّلين أن أطردكِ إلى الغابة؟ ولكنْ أعطني فقط العالم. أعطني قطيعًا من حيوان الرنّة في هاردنجرفيدا، وقطيعًا آخر في جوتونهيمن، وآخر في رُونداني. اعملي ما أطلبه منك. وإلا فخيرٌ لك أن تنهضي وتنصرفي.

- لكن يا نوفا...

- أتعلمين، رغبتُ في أن يكون للبشرية ولكل ما ينمو فوق هذه الكرة حظٌّ آخر. أليس في هذا ذكاءٌ وفطنة؟ أطلبتُ أكثر مما يحق لي؟ فالأمرُ مثل مسابقات الرّمي. فإن أخطأنا التسديدَ الأوّلَ أعدنا الكرّة. أريدُ فقط أن تُعيدي إليَّ العالم. أليستْ هذه فكرة رائعة؟ لأنّنا عندما نتصرف تصرفًا غبيًّا ليس محكومًا علينا أن نشعر بالذنب والخجل وكفى. لا، بل علينا أن ننهض من جديد لنُصلح ما هدَّمناه. كوني فقط أمَّ جدّة ظريفة وطيّبة وأعيدي إليّ إذن كل الأعشاب وكل الحيوانات، يا عُلا. بعد ذلك نستطيع أن نتكلم في تغريد العصافير.

في رمش العين تنظر في عيني أمّ جدّتها. تراهما ترتجّان قليلًا. عينان خائفتان وحزينتان. لكنّ نوفا تتوقف فجأة.

- ولكن ما الذي أرغي به؟ إنه أيّ كلام! ليس من الممكن تغيير أي شيء. أليس كذلك يا عُلا؟ اللهم إلا إذا أردت أن تقولي لي إن

ثمة مصباحاً سحريًا يستطيع أن يساعدنا، ربما؟

تحاول عُلا أن تستقيم في كرسيها. تبدو كأنها تخشى من أن تشرع بنتُ حفيدها في ضربها في أي لحظة؟ فقبضةُ يدها مشدُودة. وبقوة. لكن السيدة العجوز تجيب:

- نعم، عزيزتي نوفا، إنه شيء من ذلك القبيل، وذاك ما هو كنتُ أقصده.

- ماذا إذن؟

تشرع السيدة العجوز في ملاعبة الياقوتة الغريبة الحمراء. ثم تطلق نظرةً إلى بنت حفيدها:

- ربما سنحصل على فرصة جديدة...عُلا الصغيرة. ما الذي تقوله هنا؟ لكنّها قالته على نحوٍ مُشَوّه استهوَى نوفا استهواءً جعلها في الحال تستسلم لحديثها.

- كيف هذا؟ همست نوفا. هل بالإمكان أن نخلق شيئًا ذكيًا حقًا؟

تلمع عيون عُلا. وتهزّ رأسها في إصرار وهي تبتسم ابتسامة ماكرة.

هما صاحبتان. بالطبع لا يمكن أن تصاحب أمّ الجدة. لقد صار عمرُها ستة عشر ذات يوم، هي أيضًا. من من الكائنات لم يبلغ من العمر ستة عشر عامًا؟

ولكن ماذا عساهما ستخترعان؟ تتأمل الجدران الحمراء مثل الدم، وعُلا في ردائها الأزرق:

- نستطيع ربما أن نصرخ في الماضي ونطلب من الذين عاشوا قبلنا أن يولوا أسلافهم بعض الاهتمام والعناية. علينا فقط أن نصرخ

بقوة حتى يسمعونا.

تهزّ السيدة العجوز رأسها:

- هذا مستحيل، بالطبع، لكن ظني أني أملك فكرة أخرى.

- إليّ بها إذن. أتقصدين شيئًا من الأشياء الخارقة؟

- لست أدري، يا طفلتي. فمن يدري، فقد يكون هذا الشيء طبيعيًا جدًا.

تبتسم نوفا بملءِ أسنانها.

- ظني أني قد فهمت، قالت بقوة. ستحاولين بناء صلة مع الذين عاشوا على الأرض قبلنا حتى توجهي لهم تحذيراتك. بإمكانك أن «تنقلي» المستقبل الذي سيأتي إذا لم تكف البشرية عن استغلالها المفرط للطبيعة. هيا، احكي، عُلا. فهل هذا ما ستفعلينه؟

تهزّ السيدة العجوز رأسَها بطريقة غامضة. ولكنّ نوفا ما لبثت أن أخذت تفكّر وتتأمل. ثم تنهض من حافة سريرها وتسير في الغرفة. وتُلقي نظرةً جديدة على الشارع الرئيسي عبر النافذة الضيقة التي تصعد من الأرض إلى السقف. الجِمالُ وحيدةُ السّنام ما زالت هنا، مع مجموعة صغيرة من الأفراد.

- مستحيل، همسَت. لا يمكننا أن نُقوّم طبيعةً بعد أن تقوّضت بكاملها.

- هل أنت متأكدة؟ تقول العجوز وهي تبتسم ابتسامة ملتزمة، وقد عادت لتُلاعب الياقوتة الحمراء.

- أهي الياقوتة؟ هل لموضوعنا صلة ما بهذه القياقوتة الحمراء؟ يا أمّ جدّتي الصغيرة الظريفة. هل الياقوتة ستعيد إلينا الرنّة البرية؟

وتومئ أمُّ الجدة بنعم مرّة أخرى، وتضحك البنت.

أتريد المزيد؟ لعلها تستطيع أن تطلب المزيد؟

- هل بالإمكان أن أطلب عودة دوق أوروبا الأكبر؟ فقط اثنان أو ثلاثة، قولي، من فضلك. وثعالب الماء بطبيعة الحال، والحيونات اللازوردية...

لكن نوفا لا يسعها أن تقف عند هذا الحد. تفكر بسرعة، لأن هذه اللحظة عجيبة. سيل من الأمنيات قد يتحقق بين لحظة ولحظة، مثلما أمطرت السماء النيازك والرجم في سماء الليل. ولكن من يستطيع أن يفكر بسرعة سقوط النجوم؟ وتستعيد اندفاعها:

- هل بإمكاني أن أستعيد مليون نوع نباتي وحيواني؟

- نعم، يا صديقتي العزيزة.

يجب أن تدفعها لبذل كل ما بوسعها حتى تضمن مكاسبها. وتضيف

- ثم الموائلُ الأحيائية! لا يُجدي نفعًا إنقاذُ نوع من الأنواع بجعلها تصطف «اثنين مع اثنين»، لا تكوني أكثر غباءً ممّا أنتِ، عُلا، فأنتِ تفهمين هذا، فالنباتاتُ والحيوانات يجب أن يكون لديها ما يكفيها لكي تعيش، يجب أن تشعر بالهناء، ولذا يجب علينا أن نعيد زراعة الغابات الاستوائية، مثلا، وتصحيح تحمُّض المحيطات، وخفْض درجات حرارة الجبال العالية ببضع دراجات، واستعادة وسقي السافانا الأفريقية، وهذا تعرفينه جيدًا، لأنك لست غبية تامًا، لا كيف يمكنُ هذا!

تمسك علا بخاتمها الأحمر، وبصوت ناعم أقرب إلى السحر تصرخ:

- قريبًا ستلتقين بالأرض تمامًا كما كانت لمّا كنتُ في عمرك، لكنْ يجب أن تعِديني بأنك ستُحسنين العناية بها. لأننا سنحصل الآن على حظٍّ جيد. فمن الآن فصاعدًا علينا أن نظل يقظين بلا انقطاع، لأننا لن نحصل على حظوظ أخرى.

هذه الكلمات بدأت تُحدث صدًى أجوف لا أثر له، وكأنها انغمرت في قاع قبرٍ عميق، أو كأن أحدًا يكحُّ بها كحًّا من أعماق مغارةٍ واسعة.

لكن في جعبة علا المزيد ممّا تريد أن تقوله:

- ثم سوف نلتقي ثانية بعد سبعين عامًا. وأنتِ ساعتها من سيقع الحكمُ عليها.

تشعر نوفا بالتعب. الانسياق وراء أكبر لعبة سحرية في العالم أنهك قواها كليًا.

بدأت الغرفةُ تتمايل وتهتز، وعُلا تبتسم ابتسامة الأطفال، ابتسامة لا تليق بسيدة عجوز في سنّها. تُسند رأسها إلى مسند الكرسي القديم الذي تجلس عليه، فيخالها الرائي كأنها نامت نومًا عميقًا لن تليه يقظة. ثم أخذت رغم ذلك تغني بصوت أجش. وكأنها تغني في سباتِ ساحراتٍ أو ما يُشبه ذلك. ففي ما يشبه الحشرجة بدأت تغني:

- «كل الطيور وهي صغيرة، هي الآن عائدة! الوقواق والحسونيات، والشحروريات، والزرازير... تغني كل يوم بصوتٍ عالٍ! ....والأرزيات تستقيم منتصبةً في السماء... وتعلن عن حلول الربيع الجديد. لقد ذهب الجليد والثلوج. والمكان الآن للشمس والفرحة!»

العلب الحمراء

تفيق أنّا فجأة من نومها وهي ترمش عينيها. تملأ غرفتَها رائحةٌ غير عادية، هواء فاسد، رائحة المقفول. تضيء مصباحَ القراءة من فوق سريرها، وتنظر إلى الأعلى، إلى الجدران والسقف المائل بغلافه الورقي الأزرق الباهت.

لقد رأت حلمًا.....

يا له من حلم غامضٍ، غامض مثل اللغز وحافل بالوعود!

كانت تعيش في أزمنة قادمة، وتسكن في ذات السقيفة التي تسكن فيها الآن، لكن في حُلمها كانت الجدران حمراء حمرة الدم، وفوق مهبط السقف من فوق سريرها نُصبت شاشةٌ كبيرة مسطحة موصوله بالإنترنت.

سمعت صوت طيور القرقب في الخارج. فعندما يصير الطقس جميلًا تراها تزقزق في الشتاء أيضًا. ولكن إذا بها تسمع ضجيج محرك إحدى السيارات في محطة البنزين. وتسمع صوت باب السيارة وهو يصْفق. وتصل سيارة ثانية، من ناحية الغرب. ثم سيارة ثالثة، بسرعة كبيرة.

تمسك بإصبعها وتحسّ بالخاتم الأحمر المرصع بالياقوتة الحمراء. فهو حُلْية قديمة توارثتها الأسرة منذ ما يقرب من قرن من الزمن. فمنذ ان أقامت العمة سونّيفا في أمريكا وتسلمته من خطيبها. خطيبها الذي بعد مرور أسبوع واحد فقط على حفل الخطوبة غرِق في نهر

المسيسيبي العظيم في ظروف غامضة.

هذا الحجَر الثمين القرمزي كان في غالب الأحيان يُسمى «الياقوتة القديمة»، كأنه تجسد تقريبًا شيئًا سحريًا من العجائب التي تواكب حياة الجميع. فمنذ الليلة الماضية صارت أنّا هي من تمتلكه. لقد ورثته من أم جدتها التي فارقت الحياة في الأسبوع الماضي، والتي ورثته هي نفسها من عمتها التي كانت عقيمة، أي العمة سونّيفا العجوز.

شيء ما في حلمها، كان يدور حول هذا الخاتم، ذاته.

حلمتْ أن اسمَها نوفا، ولكن كان لها أمّ جدةٍ تدعَى نوفا أيضًا، وكانت فوق ذلك قد وُلدت في ذات اليوم الذي وُلدت فيه. فاليوم ١١ كانون الأول ٢٠١٢ وغدًا سيحل يوم عيد ميلادها السادس عشر!

أمُّ الجدة هذه، أي «عُلا» كانت تحمِل في إصبعِها خاتمًا من الذهب مرصّعًا بياقوتةٍ تُشبه تمامًا الخاتمَ الذي كانت أنّا تحمِله في إصبعها. فهذا بالطبع لأن الأمرَ يتعلق بنفس الخاتم - وبنفسِ الإصبعِ أيضًا! ففي الحلم كانت أنّا بنتَ حفيدتها، بالعين التي رأت بها عُلا نفسها كأمّ الجدةِ العجوز!

ليس من العجبِ أن ترى أنّا في حلمِها أنها بِنْتُ حفيدةِ جدّتها. لقد حلمتْ ذات مرة أنها نابليون، وفي مرّة أخرى أنها بطة. لكنْ هل كانت كل هذه القصة مجرد حُلم؟ لم تكن أنّا على يقين تامّ من أمرِها. فكلُّ ما حلمتْ به كان يبدو قريبًا وحقيقيًا، وليس فقط أثناء الحلم، ولكن أيضًا حتى هذه اللحظة، حتى بعد مرور وقتٍ طويل على خروجِها من النوم.

بعد بضعة أجيالٍ دُمّر العديدُ من الموائلِ الأحيائية الطبيعية، وانقرضتْ آلافُ الأنواعِ النباتية والحيوانية. فبكثيرٍ من المرارة والضغينة توجهت أنّا إلى أمّ جدتها واشترطت عودة عالمٍ بكاملِه، طبيعة غنيّة ومتنوعة كما عرفتها في بداية القرن. ثم حدثتْ المعجزة، لأن بداية القرن حلّت فجأة، فإذا بكل الأشياء السيئة التي حدثت ابتداءً من السادسة عشرة من عمر أمّ الجدّة تتحسّن وتعود إلى طبيعتها. لقد انتقلت أنّا ستّين عامًا إلى الوراء. وكانت في تلك اللحظة تشعر بالإحساس الجسدي لذلك العمر. فها هي ذي تحصل، هيَ والعالم أجمع معًا، على حظٍّ جديد، ولكُلّ القصة صلة مع الخاتم الغامض القديم.

يا له من يوم! صارت وكأنها تقف على عتبة عصرٍ جديد. فكل شيء يمكن أن يبدأ الآن من جديد! صار العالم جديدًا. صار ساطعًا جديدًا وبلا ذنْب، وكل الأنواع التي اختفت عادت إلى بيئاتها مرّة أخرى. نحو مليون نوع زُرعت من جديدٍ في موائلها الأحيائية الأصلية.

لكن هذه الأنواع المليون ما تزال مهدّدة بخطر جسيم. لقد حُررت في شأنها تقاريرُ مخيفة عديدة. ولم يفت الأوان بعدُ لإنقاذ التنوع البيئي على الأرض. لقد حصل العالم على حظٍّ إضافي جديد!

الرسالة الغريبة التي عثرت عليها نوفا على الإنترنت تعود إلى ذاكرتها مرة أخرى. إنه نص كانت أنّا قد كتبته إلى بنتِ حفيدتها قبل أن تولد بكثيرٍ كثير. ولكن ما الذي كان مكتوبًا، تُرى؟

تقفز من سريرها، وتخطو الخطوتين اللتين تفصلانها عن مكتبها، وتجلس على الكرسي وتُشغّل جهازها. والآن عليها ألا تفكر في شيء آخر غير الكمبيوتر الذي أمامها. عليها أن تركز تركيزاً كاملا، حتى تستطيع أن تتذكر أكبرَ قدرٍ ممكن من الرسالة الطويلة التي حررتها عُلا قبل أكثر قليلًا من سبعين عامًا من وصولها إلى صاحبتها.

صار الكمبيوتر جاهزًا! فتكتب:

عزيزتي نوفا، لست أدري كيف صار حالُ العالم في الساعة التي تقرئين فيها هذه الأسطر. ولكن أنتِ تعرفين ما آل إليه. تعرفين مدى سعة الخسائر المناخية، وإلى أي حدٍّ تراجعت الطبيعة، وربما تعرفين بالتحديد أكثر الأنواع النباتية والحيوانية التي انقرضت...

لم تذكر شيئًا آخر. كانت الرسالة طويلة وجوهرية، وتُحدّث نفسَها أنّ مقاطع أخرى قد تعود إلى ذاكرتها أثناء اليوم. وتسمي الوثيقة «رسالة إلى نوفا» وتحفظُها في الجهاز.

تلقي أنّا نظرة إلى النافذة الضيقة التي ترتفع من الأرض حتى السقف وتلاحظ يومًا مشرقًا من أيام كانون الأول. وكان ذلك من حظها ما دامت مُجازة في ذلك اليوم. لكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على التخطيط لأي شيء في تلك اللحظة. كانت الشمسُ قد بدأت تطلع في السماء وتلقى بظلال طويلة على المشهد الثلجي، ولكن هذا اليوم كان عليه أن ينتظر. فهي الآن غارقة في الحلم الذي ما زال يتخمّر في رأسها. كان يبدو لها حقيقيًا كيوم الشتاء الحقيقي خارج الغرفة. وكان أكثر دفئًا.

تحطّ عينيها فوق مكتبها. على المكتب بضعُ طبعاتٍ عن «أحوال العالم»من معهد ورلدواتش، وقائمة حمراء حديثة عن الأنواع المهدّدة بالانقراض في النرويج، وكُتيّب حول التغيرات المناخية، ثم كتاب جميل عنوانه A Gap in Nature مع عنوان ثانوي Discovering the World's Extinct Animals جلبه بابا لللتو من أستراليا.

تشرف على مكتبها مكتبةٌ وعلى رفّها السفلي علبتان للأحذية غلّفتهما أنّا بورق الهدايا باللون الأحمر. كُتب على إحدى العلبتين ما هو العالم؟ وعلى العلبة الثانية «ما الذي يجب فعله؟ جمعت فيهما قصاصات صحافية متنوعة وكذلك ملفات عثرت عليها في الإنترنت.

في حلمها قرأت نوفا مقتطفات من مقالات العلبتين الحمراوين. ومنها مقالة كانت أنّا قد قصّتها بالأمس فقط، فيما كان بابا وماما يتفرجان على فيلم القبطان كوك.

تنهض من على كرسيها وتُنزل العُلبتين من على الرفّ وتضعهما فوق مكتبها. وعلى عجلٍ تستعرض الأوراق، وفي الحين تجد ما كانت تبحث عنه.

كان الأساس الجوهري لكل الآداب هو القاعدة الذهبية أو مبدأ المعاملة بالمثل: عاملْ الآخرين بما تحب أن يُعاملك الآخرون. ولكن القاعدة الذهبية لم تعد تكتسب بعدًا أفقيًا وحسب، أي بـ «نحن» و»هُمْ». لقد بدأنا ندرك أنّ مبدأ المعاملة بالمثل له بعدٌ عامودي أيضا: عامل الجيل القادم كما كنت تحب أن يعاملك الجيل السابق. هكذا الأمر ببساطة. عليك أن تحب الآخر كما تحب نفسك. وهذا بالطبع يجب أن يشمل الجيلَ القادم. ويجب أيضًا

أن يشمل على الاطلاق جميع أولئك الذين سيعيشون من بعدنا على هذه الأرض.

لأن البشر على الأرض لا يعيشون جميعًا في زمن واحد. فالبشرية جمعاء لا تحيا دُفعة واحدة. هناك بشرٌ عاشوا قبلنا، وهناك آخرون سوف يأتون من بعدنا. ولكن الذين سيأتون بعدنا هُم جيرانُنا أيضًا. ويجب أن نُعامِلهم كما كنا سنرغب أن يعاملونا لو كانوا عاشوا على هذا الكوكب من قبلنا.

مفتاحُ السرّ بسيط للغاية. لذلك لسنا نملك الحقّ في أن نترك كرةً أرضية بقيمةٍ أقل من قيمة الأرض التي وسِعنا أن نعيش عليها نحن أنفسنا. بأسماكٍ أقل في البحر. وبمياهٍ أقل صالحة للشرب. وبطعام أقل. وبغابات قطبية أقل. وبطبيعة جبلية أقل. وبشِعاب مرجانية أقل. وبأنهار جليدية ومنحدرات تزلّج أقل. وبأنواع حيوانية ونباتية أقل.

وبجَمال أقل! وعجائب أقل! وروعة وفرحة أقل!

بوفْ! قراءةُ هذا النص تركت أنّا منزوفةً تمامًا. فهذه هي المرّة الثالثة أو الرابعة التي تقرأ فيها هذا النص، وبنتُ حفيدتها هي التي وجدت إذن هذه الكلمات الدقيقة على الإنترنت بعد سبعين عامًا! لأن كل ما هو موجودٌ اليوم على شبكة الإنترنت ربما سيبقى محفوظًا إلى الأبد. كلُّ الكلمات، وجميعُ صورِ عصرنا سوف تظل معلّقة في «الغلاف الكهربائي.»

ما أتعس أحفادنا المساكين، فكّرتْ، الذين سيتعيّن عليهم أن يذعنوا للعيش على كوكبٍ مشوّشِ الذهنِ نتيجة الأنانية وعدم اكتراث الأجيال السابقة، وأن يعيشوا أيضًا مع كل هذه التحذيرات!

«أحِبْ أخاك كما تحبّ نفسك. وهذا بالطبع يجب أن يشمل الجيلَ

القادم أيضًا   « ليس غريبًا أن نصاب بالصدمة ونحن نقرأ مثل هذه الأوامر التي تأتينا من الماضي البعيد – ماضٍ كان قبل أن يفوت الأوانُ على فعل أيّ شيءٍ بزمنٍ طويلٍ طويل.

لكْن ليس هذا كل شيء. لقد عثرت نوفا أيضًا على شيءٍ آخر على الإنترنت. تُقلّب نوفا بسرعةٍ أوراقَ «ماذا سنفعل؟ وأخيرًا تقع يدُها على الورقة بيت القصيد:

مسألةُ المناخ مثلُ جميع المسائل المرتبطة بالخطر الذي يهدّد التنوّع البيولوجي لها صلةُ بالشراهة والجشع. لكن الجشع عمومًا ليس موضوع انشغال الجُشعاء. والتاريخ لا يخلو من أمثلة تثبت هذه الحقيقة.

واستنادًا إلى مبدأ المعاملة بالمثل، ينبغي ألا نسمح لأنفسنا باستخدام الموارد غير المتجددة إلا عندما نتخذ تدابير موازية حتى نضمن لسلفنا أن يتدبروا أمرهم من دون هذه الموارد.

الإجابة على المسائل المرتبطة بالآداب ليست أمرًا صعبًا بالضرورة، فالأمرُ مرهون بقُدرتنا على الالتزام بهذه الأجوبة.

أتخيّل حزنَ أحفادنا وأولاد أحفادنا – لأنهم فقَدوا مواردَ مثل الغاز والبترول، ولأنهم فقدوا في الوقت نفسه التنوّع البيولوجي: لقد أخذتم كل شيء لأنفسكم ! ولم تتركوا لنا شيئًا!

لقد أخذتم كل شيءٍ لأنفسكم...

أفاقت أنّا من نومٍ مضطرب، بعد خروجها من حلمٍ قوي، ما انفك يَغلي في رأسِها غليًا. آهٍ لو كان هذا مجرد حلم ليسَ إلا!

وما لبثت أن فكرت في جوناس. لقد وعدته بأنها ستطلبه فور

استيقاظها من النوم. ولكنْ عليه أن ينتظر. حاولتْ أن تعود ثانيةً إلى صُورٍ أخرى في هذا الحلم، وإذ بها تتذكّر برنامجًا كانت نوفا قد استمعت إليه وهي تتجوّل في غرفتها.

كانت أنّا تعلم أنها حصلت على نسخٍ من هذا الملف الصوتي في إحدى عُلبتيها الكبيرتين. ولكنْ أين اختفى هذا الملف؟ تُفتش في العلبتين ولكنها لا تعثر عليه. لعلها نسيت شيئًا، ولكن ما الذي نسيته؟ هل كان ثمة سببٌ خاص في أن لا ترتب هذا الملف بعينِه؟ وفي الحين بدأ الغشاءُ ينزاح، وفي الحال تُخرج كتابًا من المكتبة. عنوانه Arabian Nights وهو طبعة إنجليزية لـ ألف ليلة وليلة. لقد تحقّقت من أمرٍ بعينِه في هذا الكتاب، وقد ظل النص الذي كانت تبحث عنه في الكتاب كدليلٍ على الصفحة.

من جميع النواحي نحن نعيش في أوقاتٍ استثنائية. فمن جهة، نحن جزءٌ من جيلٍ ظافر يستكشف الكون ويُسلسل الجينوم البشري، ولكن من ناحية أخرى نحن الجيل الأول في تدمير بيئة كوكبنا إلى الأبد. نرى كيف تنهك الأنشطة البشرية الموارد وكيف تفتّت السكان. نُفْرِط في تحويل بيئتنا حتى أصبح من الشائع الحديثُ في عصرنا وكأنه حقبة جيولوجية جديدة، اسمُها الأنثروبوسين.

في النباتات والحيوانات، في البحر والنفط، وفي الفحم والغاز مخزونٌ هائل من الكربون الذي يتوق للأكسدة والانطلاق نحو الغلاف الجوي. فعلى كوكبٍ ميّتٍ مثل الزهرة يُشكل ثاني أكسيد الكربون الجزء الأعظم من الغلاف الجوي، وذلك هو الوضع الذي سوف تتعرّض له الأرض إذا لم تُوقف العملياتُ الأرضية الكربونَ عند حدّه. ولكن منذ نهاية القرن الثامن

عشر ما انفكت احتياطيات الوقود الأحفوري تُغرينا كعبقرية مصباح علاء الدين. «حرِّرْنا من المصباح!» همَس الكربون. واستسلمنا نحن للإغراء. والآن نحاول أن نُجبِر العقل على العودة إلى المصباح.

لو كلُّ النفط، وكل الفحم وكل الغاز الذي ما يزال موجودًا على هذا الكوكب ضُخَّ وأُلقيَ به في الغلاف الجوي، لتعذر استمرار بقاءِ حضارتنا على هذه الأرض. ومع ذلك فما أكثر الذين يظنون أن استخراج وحرق جميع أنواع المحروقات الأحفورية داخل أراضيهم الوطنية حقٌّ إلهيٌّ لا جدال فيه. فلِم لا يكون هذا الحق حقًّا مطلقًا لأمم الغابات الاستوائية في أن تفعل ما تشاء وما يطيب لها بغاباتها؟ فأين الفرق تُرى؟ ما هو الفرق مقارنةً بمحصلةِ الكربون العالمي؟

وما هو الفرق مقارنةً بفقدان التنوّع البيولوجي؟

تتوجّه أنّا إلى النافذة التي تطلّ على الوادي. وتقع عيناها على محطةِ البنزين المزدحمة. وخطَرَ لها أنّ المحطة أصبحت تشبه أحفوراً حيًّا عفا عليه الزمن، فصار من فرطِ ما عفَا عليه الزمنُ كأنه خرج من زمنٍ مختلف، ومع ذلك ظل في كاملِ انتعاشه!

وتتذكر مقطعًا مُبهمًا آخر من حُلمها...

المظلّة

يهطل المطرُ بغزارة وتنزل المنحدرَ الوعِرَ تحت مظلةٍ حمراء. مظلةٌ كبيرةٌ تتّسع لروضةِ أطفالٍ بأكملها. وفي المنحدر ترى على الجانب الآخر من النهر كلَّ الانهيارات الأرضية التي وقعتْ على التل، وترى الشارع الرئيسي الذي يمرّ في الأعلى.

تنحدر لغايةِ مفترقِ الطرقِ الذي كان فيه محطةَ البنزين في ما مضى. لقد صارت تلك المحطةُ الآن ما يشبه محطةَ ترحال واستراحة. فهنا يتوقّف عادةً جميعُ العرب الذين يعْبُرون الجبل. وهنا تُسقَى الإبلُ ويتغذّى الرجالُ ويستريحون. وفي الغور بالقرب من النهر يستعِر لهيبُ نارِ مخيّمٍ تتدفّأ من حولِه مجموعةٌ من الأشخاص.

تحتَ مظلتها الواسعة، تغوص في الحشد: النساءُ في عباءاتٍ سوداء والرجال في أرديةٍ بيضاء تصل إلى الأعقاب. فهي الوحيدةُ التي تحمِل مظلةً حمراء، وهي واسعةٌ جدًا ولوُسعِها صار العديد يُفسِحون لها المكان، بينما اختار آخرون المرورَ من تحت المظلة حتى يُرحّبوا بها. أمّا الأطفالُ فلا حاجةَ لهم للانحناء. فهكذا تُلقَى إليهم تحت المظلة تكشيراتٌ جميلة.

الناسُ فرِحون بشُوشون، ويضحكون. أحدُ الرجال يُشعوِذ في خفةٍ بمصابيح زيتٍ قديمة، والنساءُ والأطفال يصفّقون. وأهالي القرية يبيعون كبابَ الضأن والمشروبات الساخنة. والبعضُ يبيعون أيضًا معاطفَ المطر والبطانيات الصوفية. وفي المقابل يحصلون على قطعٍ ذهبية.

وبعيدًا عن الحشْد، ترى ولدًا مضطجِعًا فوق العشب، فتسأل إحدى النساء المحجّبات بالسواد إنْ أصاب الولدَ مكروه، فتعلو وجهَ المرأة علاماتُ القلق وانشغالُ البال، وتُومئ بأنّ الصبيّ مصابٌ وهي تقول «رحلةٌ كبيرة، رحلةٌ طويلة!»

وتقصد إلى الولدِ في العُشب، وتغرِس من فوقه مظلّتها الحمراء حتى تقيَه على الأقل من سيْل كل ذلك المطر. وتأتي في إثرها امرأتان بثوبِهما الأسود، وتشير نوفا بإصبعها إلى منزلها وتقول إنّ الشاب يستطيع أن ينام فيه.

ويرافقنه في الصعود، وتُسنده المرأتان، وعند الباب يصادفن عُلا، فتشرح لها نوفا أن الولدَ مريض، ولا بد من أن يمكث في المنزل حتى يتعافى. ولبثن في غرفةِ الوسائد فهل يستدعين الطبيب، فلعل الولدَ يحتاج إلى أدوية.

في محطة البنزين ما انفكت السيارات تصل وتصطفّ في الموقف، وكان السائقون على العموم يكتفون بجعل المحركات تشتغل أثناء مرورهم لتناول النقانق وعلب الشيبس في المحل. لقد غضبت أنّا وسخطت من كل العوادم التي تنبعث من السيارات، حتى وهي متوقفة. «سياراتُ نقانق»، قالت في داخلها. غازاتُ الانبعاث المزرقّة كانت واضحة ودقيقة، وتُنبئ بأنّ الحرارة كانت منخفضة بالفعل، ربما أقل من اثنتي عشرة درجة. لم يكن لديها على نافذتها مقياسٌ للحرارة الخارجية، لكنها تعلّمت فنّ تقدير درجة الحرارة في الشتاء من خلال لون وكثافة العوادم المنبعثة من السيارات.

لبثت أمام نافذتها تتأمل ما قرأته عن البترول. لقد دوّنت بضعةَ أرقام خارقة على دفترها اللاصق الأصفر وصارت تمسك به الآن في يدها.

برميل النفط يعادل مائة وتسعة وخمسين لترًا، ويباع حاليًا بنحو مئة دولار وستمائة كرونة نرويجية. كان هذا البرميلُ الواحد من النفط يوفر نفس الطاقة التي توفرها عشرة آلاف ساعة من العمل البدني. وهو ما يعادل في النرويج ما لا يقل عن ست سنوات من العمل. مع راتب سنوي قدره ٣٥٠ ألف كرونة، وبالتالي تصل كلفة الرواتب إلى ٢,١ مليون كرونة. برميلٌ واحد من النفط يوفر على هذا النحو طاقة قد تكلف أكثر من مليوني كرونة لو كان يجب استبدالها بالعمل

اليدوي. يستهلك المواطن الأميركي المتوسط ما لا يقل عن خمسة وعشرين برميلًا من النفط سنويا. وهو ما يعادل مائة وخمسين عامًا من العمل، والأمر نفسه لو كان هذا الأميركي العادي يمتلك في أيّ وقتٍ مئةً وخمسين من «عبيد الطاقة» — ليُشغّل جميعَ سياراته وآلاته وجميعَ الثلاجات ومكيفات الهواء، وجميعَ طائراته ومصانعه ومزارعه وألعابه ... لم نتحدث هنا إلا عن النفط! ويضاف لهذا الفحمُ والغاز.

تساءلت أنّا إن لم يكن النفط رخيصًا جدًّا. ففي الولايات المتحدة أُدخِل هذا المورد تقريبًا في الوقت الذي أُلغيت فيه العبودية. في البداية كانت مزارع تكساس تجلب العبيد من غرب أفريقيا. ثم جاءها النفط بوفرة....

فقط ستمائة كرونة لستّ سنوات من العمل البدني! لم يكن هذا يكلف أكثر من مئة كرونة عن كل سنة من العمل، فهذا بلا شك ما كان يسمّى أجر الرق.

كيف يمكن أن يكون هذا المورد رخيصًا إلى هذا الحد؟ من تلقاء نفسها فكّرت أنّا في إجابة على هذا السؤال. فإذا كان النفط رخيصًا إلى هذا الحد فذاك لأن ما من أحد كان يمتلكه. لا أحد كان يمتلك النفط، إذن لم يكن له ثمن. وكان يكفي ضخه!

عمرُ النفط ملايين السنين. كان في الحقيقة خزانًا لملايين السنين من الطاقة الشمسية. ولكنْ لـمّا لم يكن أحدٌ يمتلكه صار بالإمكان استهلاكه بالكامل في زمنين اثنين، وحركات ثلاث. وهكذا انتهت مغامرة النفط!

تحط أنّا عينيها فوق جهازها وهي تهزّ رأسها.

كان صحيحًا بالتأكيد، كما يحلو للسياسيين ووزراء النفط أن يروّجوا له، أن النفط قد أخرج الكثير من الناس من براثن الفقر. ولكن صحيح أيضًا أنه دفع الكثير من الناس إلى ترفٍ لا معنى له، وإلى تبذيرٍ وإسراف واستهلاكٍ مفرطٍ لا مثيل له في التاريخ.

في دفترِها اللاصق الأصفر أمسكت بقصاصةٍ صحافية. عليها إعلانٌ عن رحلات جوية. مطار موس، بالقرب من أوسلو، أرخص رحلة منه إلى باريس لا تكلف سوى ١١٩ كرونة. كم من تذاكر كانت بهذا السعر، لا علم لها بذلك. ولكن المثير للاهتمام هو ما كان مكتوبًا بخط صغير «مع جميع الرسوم». باريس بـ ١١٩ كرونة مع جميع الرسوم! كان ذلك المبلغ يعادل ما يُدفَع لأربع تذاكر ترامْ في أوسلو. لم يكن ذلك مكتوبًا بالخط الصغير، لكن أنّا قرأته في موضع آخر، وهو أن رحلة ذهاب إياب أوسلو- باريس لشخص واحد تعادل، من حيث التأثير على البيئة، ما يحدثه هذا الشخص لو قطع بالسيارة مسافة ستة أو سبعة أميال تفصله عن العمل لمدة عام كامل. وقد قرأت أنّا أيضًا في مكان ما أن رحلة أوسلو- نيويورك ذهابًا وإيابًا لها على البيئة نفس الأثر الذي تحدثه خمسون ألف سيارة شخصية في يومٍ واحد.

ألسنا نستهلِك في هذه الحالة مواردَ كان يمكن أن تكون مفيدة جدًا للأجيال القادمة؟ ألسنا نُفرغ بطاريات كان يمكن أن تعمّر زمنًا أطول؟ لعله لم يبق سنوات عديدة قبل أن يتم استبدالُ النفط بأيادٍ متحمّسة، ورقابٍ متشنّجة ومقروحة، وأكتافٍ متألمة ؟ وبعبارة أخرى، ألم تكن شاهدةً على أنّنا ننهب الأجيال القادمة بإفراطٍ وشدة؟

لأنه ألا يؤدي احتراقُ كل هذا الوقود الأحفوري على مدى فترةٍ قصيرة إلى تقويض الموارد المتجدّدة أيضًا؟ أليس هذا المهرجان النفطي الذي لا وازع له تهديدًا كبيرًا ضد جوهر وجودِ النباتات والحيوانات والبشر معًا؟ ألا يسلب هذا التدمير الذي تتعرّض له الطبيعة، أيضًا، أولئك الذين سيرِثون هذه الأرض؟

كانت ما تزال واقفةً عند النافذة. في حلمِها باع المزارعون كبابَ لحم الضأن لِلاجئِي المناخ الذين يعبُرون البلاد بلا انقطاع، وكثيرٌ منهم ليُجَرّبوا حظّهم كتجارٍ في شمال غرب النرويج.

لم تستطع أنّا أن تكبح ابتسامةً من كلّ ما طبخته. وفي الوقت نفسه كان كل هذا يبدو لها صحيحًا وحقيقيًا. لم تكن تستطيع أن تحسَّ بذكريات الصيف الماضي في إيطاليا أكثرَ واقعية ممّا رأته في الحلم، وكانت بالكاد قادرة على أن تتذكر ما فعلته في الصف في ليلة ذلك الحلم.

لكن حلمها لم يتوقف عند هذا الحد. لقد شعرت أنّ الحلم كان حقًا بلا قاع. فعند النوم صنَعت عالمًا مستقبليًا واسعًا. عالمٌ موازٍ للحياة التي تحياها، هنا والآنَ. فكلما أمسكت بخيطٍ واحد رأت ربطاتِ خيوط أخرى قادمة، ومشاهد عاشتها، إما قبلُ وإمّا بعدُ، وربما في نفس الوقت مع كل الباقي

جِمالٌ وحيدة السّنام

صار الفتى أكبر. صار في عمرِها، أو ربما أكبر منها بسنة. يلعبان الآن لعبة اللودو في غرفة الوسائد. بيادقُها حمراء وبيادقُه زرقاء.

تروي أنها لعبة هندية. في الهند كان الملوك يلعبون لعبة اللودو مع بيادق حية. كانوا يلعبون مع زوجاتهم وحريمهم. وهكذا كان عددُ النساء يصل إلى ستة عشر امرأة في البلاط حيث كانت صناديق اللعبة تتسم بمربعات حمراء وأخرى بيضاء.

جمع الفتى ثلاثةً من طوبِه على أحد المربعات. ورمى بزهر النرد وتمكّن من جعل بيادقه الأربعة تقف بعضها فوق البعض الآخر. ثم يعلن أنه الفائز، لأنه حصل على «المئذنة». ويلي ذلك خلاف على قواعد اللعبة، وهكذا ينهيان لعبتهما.

في الخارج تحت شجرة الزان الأرجوانية الباسقة يتأمّلان الوادي. لقد تقدّم جملٌ هائج من محطة الاستراحة. يلتفت الفتى العربي إليها ويقول:

- كان جدُّ والدِ جدي يسافر على الجمال. وكان والدُ جدي يتنقّل بسيارة مرسيدس، وكان جدي يتجول حول العالم بطائرة جامبو. ولكننا اليوم نسافر على ظهْر الجمال مرّة أخرى.

يحدّق فيها متأمّلًا ويضيف:

-كان النفط وبالًا على بلدي. لقد أصبحنا أغنياء دفعةً واحدة،

ولكننا الآن فقراء. كيف يمكن أن نظل أغنياء عندما لم يعد لدينا بلدٌ يمكننا العيش فيه؟

الفتى سيغادر البيت بعد قليل. احتشدت مجموعة جديدة من العرب في محطة الاستراحة مع قطيع من الإبل. الدخان يرتفع من مشاوي الفحم والقدور. تَخرج عُلا لتقول له وداعًا. ويُخرِج الفتى العربي من إصبعِه خاتمًا أحمر ويقدّمه لعُلا امتنانًا على حسن الضيافة ورعايتها الطيبة.

تشعر نوفا بخيبةِ الأمل لأنّ كل الشكر ذهب إلى عُلا. ولكنّ الفتى يلتفت إليها ويداعب شعرَها. إنها المرّة الأولى التي يداعب فيها فتًى شعرَها. يقول لها إن والدة جدّتها صارت عجوزًا وإنها هي من سترِث يومًا خاتمها.

يقول لها إنّ الخاتم خاتمُ علاء الدين الحقيقي، وإنه يأتي من حكاية قديمة من حكايات ألف ليلة وليلة.

تتفحّص نوفا زوجَين من العيونِ الداكنة، أقرب إلى السواد الكامل، وتستشعر فيهما سرًّا عميقًا.

أرشيف

تجلس أنّا على وسادةٍ زرقاء مستنِدةً إليها أمام نافذتها الضيقة وتعود إلى نفسها. تحس أنها قد انتهت تمامًا. إنها تقف مرّة أخرى عند نقطة الصفر. سبعون عامًا إلى الوراء. كان العالم وكأنه قفّازٌ يمكن قَلبه على الوجهين. صارت شخصًا مضاعَفًا. عمرُها ستة عشر عامًا في ٢٠٨٤، وغدًا يصير عمرُها ستة عشر عامًا. غدًا يحلّ عيدُ ميلادها!

تسحب الخاتمَ من إصبعها وتأخذ في اللعب به، وهي جالسةٌ بجوار النافذة. تبدو الياقوتة وكأن لونها مثل لونِ دمِ الحَمَام، أحمرٌ داكن، يظلّلها اللون الأزرق. تراه الآن ينعكس فوق الزجاج انعكاسًا أنيقًا. إنه يُسمَّى في العادة بالخاتم النجمي، تلمع فوق سطحه نجمةٌ بستّةِ فروع متحركة. فهي تعرف تمامًا مسار هذا الخاتم على مدار نحو قرن من الزمان. لكنها سمعت أيضًا قصصًا كثيرة أقدَم عهدًا. العمّة سونّيفا العجوز روَت للأسرة أنّ أصل الخاتم فارسي، ولكنّ الحَجر جاء من بُورما

تجلس أمام الكمبيوتر وتنقر www.arkive.org.في اللحظة التالية صارت على صفحتها المفضلة: صورٌ من الحياة على الأرض.

على الشاشة ترى في البداية صورةً لِسير ديفيد أتينبور، وصورةً لوشقٍ إيبيري. تستطيع الآن أن تختار من بين آلاف الأنواع الحيوانية والنباتية التي تتمنّى رؤيةَ صورها، ومقاطع من أفلام متنوعة. وبإمكانها أن تستفسر حول المناطق التي يعيش فيها نوعٌ بعينه، ومقارنته مع

فضاءات توزّعِه في الماضي.

لقد تراجع العديد من النظم الإيكولوجية على الكرة الأرضية، وصارت الممرات ما بين المناطق السليمة مجزأة. ففي أفريقيا، على سبيل المثال، كان تمثيل العديد من الحيوانات والنباتات يغطي كل القارة من الشرق إلى الغرب تقريبًا، لكنه يتقلص الآن إلى بضع بقايا متفرقة في الغابة العذراء بأفريقيا. وكذلك الحال في أوروبا وآسيا وأمريكا. الفرق ربما أن تدمير التنوع البيولوجي سبق في أوروبا باقي القارات الأخرى. ففي المناطق الوسطى من أوروبا تكاد الحيوانات المفترسة الكبيرة تنقرض تمامًا. ففي النرويج وحدها قُتلت أكثر من خمسة آلاف من الدببة بين عامي ١٨٥٦ و ١٨٩٣.

تنقر على عِبارة شبيهات الإنسان في لوح البحث وكان أمامها الاختيار بين ستة أنواع من القرود. كان هناك نوعان من الشمبانزي، ونوعان من الغوريلا ونوعان من القردة. ويعتبر الاتحاد العالمي للحفاظ على الطبيعة ومواردها أربعة منها مهددة بالخطر، واثنان منها مهددان بخطر الانقراض. جميع القرود الشبيهة بالإنسانِ في الأرض كانت إذن مهدّدة بالانقراض، أو معرّضة للخطر. والمقصود بالخطر الحرج هو خطر «الانقراض العالي جدًا» للأنواع في خلال العقود القليلة القادمة، والمقصود بكلمة «خطر» أنّ الخطرَ «عال جدًا». شكرًا. خطرٌ مرتفعٌ جدًا، وانتهى الأمر.

وتنقر على عدد من أشرطة الفيديو. كانت الصور هي الصور التي رأتها على الشاشة الكبيرة في السقف عندما كانت على الجانب الآخر من القفّاز. لكنّ الأمر كان يتعلق بعد بضعة عقود فقط، بصور الأنواع المنقرضة. لم يكن الوضع ميئوسًا منه تمامًا. في الواقع كان

ما يزال أفراد حقيقيون يعيشون في البرية، في حفنة من المستوطنات المعزولة، في عدد قليل من الواحات المتناثرة من المواثل الأحيائية الأصلية.

وفي الوقت نفسه كان الإنسان قد استطاع أن يصبح اللبون الأكثر انتشارا في العالم. فلا يوجد الآن أي نوع من الثدييات الأخرى التي تضم مزيدًا من الأفراد غير الإنسان العاقل. ولكن، بالطبع، كان ذلك منطقيًا، ما دام البشر على وجه التحديد صاروا هم الذين يهدّدون بالانقراض أقرب الكائنات إليهم، ليس فقط بسبب الغابات التي تم تدميرها والمواثل الأحيائية المفقودة، ولكن أيضًا بسبب أنواع الصيد غير المشروع.

تلقي نظرةً أيضًا على بعض الحيوانات المفترسة على الكرة الأرضية. فالعديد من هذه الأنواع كان مهدّدًا أيضًا على غرار القردة الشبيهة بالإنسان. فعلى مدى القرن الماضي فقد النمرُ ثلاثة وتسعين في المئة من فضائه الجغرافي. ولكن، بطبيعة الحال، لم يكن تقلص التنوع البيولوجي يقتصر فقط على القرود والحيوانات المفترسة الكبيرة وحدها. فالآلاف، وربما مئات الآلاف من الأنواع النباتية والحيوانية كانت مهدّدة لمجرد تقلص النظم الإيكولوجية الكبيرة وإزالتها، وخصوصًا بسبب التغيرات المناخية الناجمة عن الأنشطة البشرية.

تُلقي من جديد نظرةً على الياقوتة الحمراء. ففي أثناء وجود هذا الخاتم حدثت خيبةُ أملٍ هائلة لطبيعة الكرة الأرضية. ولا أحد يدري كيف سيكون الوضع بعد مائة عام؟

كادت أنّا أن تنسى الهدية الأخرى التي تلقتها لعيد ميلادها السادس عشر، فذهبت لتأتي بهاتفها الجديد من على طاولة السرير، ثم فتحته. لقد تسلمت رسالةً قصيرة على هاتفها المحمول الجديد، وبالطبع كانت الرسالة مرة أخرى، من جوناس:

هل أنت مستيقظة، أنّا؟ أيمكنكِ الاتصال بي؟

في الحالِ يستولي عليها عذابُ الضمير، ألم تعِده بالاتصال فور استيقاظها من النوم، وترد عليه:

جوناس، أنا غارقة في موضوع مهم. شيء عظيم، شيء له أهمية كونية. سأتصل بك قريبًا.

وفي غضون بضع ثوان جاءها الرد:

موافق. خذي كل وقتك. أراني متشوقًا لمعرفة هذا الذي يتسم بأهمية كونية.

احتوى الهاتف بالفعل عدة تطبيقات من الصحف ومن وسائل إعلام الأخرى. تدخل أنّا على إحدى الصحف على الإنترنت وتنقر على واحد من العناوين الكبرى:

«البحث ما يزال جاريًا. إستر أنتونسن التي ما تزال رهينة في الصومال. في صباح يوم أمس، غادرت إستر أنتونسن مطار مقديشو الدولي لمرافقة كميات كبيرة من المواد الغذائية. كانت في صحبة اثنين من عمال الإغاثة، واحدة أمريكية والثانية مصرية، وسائقين محليين لخمس شاحنات نقل الأغذية. ممثلو برنامج الأغذية العالمي محتجَزون كرهائن منذ جفاف العام الماضي والقرن الأفريقي

يعاني من المجاعة. مات الآلاف من الناس من الجوع، وحاول العديد من اللاجئين الفرار من المنطقة التي ضربها الجفاف وللظروف السياسية بلا شك دور في معاناة السكان، ولكن علماء المناخ لا يستبعدون أن الكوارث الطبيعية، مثل هذه، مردّها لتغيرات المناخ التي تسبّب بها ابن آدم...»

تنظر أنّا إلى صورة المرأة النرويجية المفقودة. إنها في الثلاثينيات على الأرجح؟ ولكن ألم تلتقِ بها من قبل؟ أم أنها كانت مجرد شخص رأته في الحلم؟

لقد سبق لها أن تمثّلت شخصًا لم تره قط، وتعرف عن يقينٍ أنها التقَتْ به في الحلم. وقد استخلصت في النهاية أنه من الحكمة أن تتريّث قليلًا قبل أن تذكر هذا النوع من الاتصالات مع هذه المعارف الجديدة. فلم تعد تستعجل القول: «ما أغرب أن ألتقِي بك. لقد رأيتك في الحلم!»

تجلس الآن في الأعلى فوق رأس سنام أحد الجمال. أربعة جمال أخرى أمامها. فهي تُستخدم لنقل حمولة المسافرين، ومن بينها السجاد وصناعات يدوية أخرى التي تباع في الأسواق الرئيسية ما بين مولدي وكريستيانزوند. ومن بين السلع الأخرى أيضا قلادات اللؤلؤ وأكياس التوابل، مرتبة في جيوب صغيرة على جانبي هذه البهائم الفخورة.

نوفا هي الوحيد التي تجلس على هودج أحد الجمال الذي يقوده فتى عربي. كتفاها مغطيان بمعطف أحمر، أهدته إياها إحدى النساء. ومن على هذا الجمل تتربع فوق المناظر الطبيعية، وتشعر كأنها أميرة عربية. وينظر إليها الفتى وهو يبتسم.

– الشيخة! يقول.

تستطيع أن ترافق القافلة على مسارٍ قصير، ولكن بعد ذلك سترجع في الحافلة الكهربائية في لُو، إلى الغرب من الوادي. أرادت فقط أن تستمتع بمرافقة القافلة، ولكنها صارت الآن تعرف الفتى العربي جيدًا، ولكن لا هيَ ولا هو يجدان الانفصال سهلًا.

تضم البقية ربما ثلاثين شخصًا من جميع الأعمار. فأمام الإبِل الخمسة يضرب أحدُ الرجال الإيقاع على طبلٍ مصنوع من جلد الجمل، وتتحرك فتاة في الحادية عشرة من العمر ذهابًا وإيابًا بين الموكب وهي ترقص وتعزف على شبّابةٍ من الخيزران.

يعبرون الجسر ويبدأون المسيرة الطويلة نحو الممر الجبلي. لقد

توقف المطر، ولكن المشهد ما زال رطبًا، والماء ما زال يتقاطر من الأشجار.

يندفع النهرُ نحو الوادي ويصير مستوى الماء مخيفًا. المهم أن يتوقف المطر بضعة أيام قبل أن يستمر في السقوط بالدلاء!

لم يسبق للبلاد أن كانت أكثرَ حرارةً وأكثر رطوبة وأكثر خضرة كما هي الآن، ولم تكن الأنهار أكثر سُمرة ممّا هي عليه الآن. ففي أربعين عامًا ارتفع عدد السكان في الوطن خمسة أضعاف، ليس بسبب ارتفاع الولادات، ولكن بسبب الموجات الجديدة من اللاجئين المناخيين التي تتابعت بلا انقطاع. الأقاليم الواقعة في أقصى الشمال من العالم هي فقط المستفيدة من هذه التغيرات المناخية الجذرية. ناهيك أن في كثيرٍ من بلدان الشمال الأوروبي ما يزال هناك فيها الكثير من المساحات الشاغرة.

تتحدث إلى الفتى العربي عن المتشككين في شأن المناخ في أوائل القرن. كانوا رجالًا ما بين جيلين يجتهدون في رفض الفكرة القائلة إن العالم يشهد ارتفاعًا للحرارة. أو في نفي أنّ الاحتباس الحراري العالمي سببُه الإنسان. ولكنْ سواء ارتفعت الحرارة أم لم ترتفع فلا نملك إلا أن نتسلى بذلك، نحن الذين نعيش في أقصى الشمال

– هذا ما أسميه اتخاذ جميع الاحتياطات، يجيب الفتى العربي. كانت النعامات في أفريقيا والشرق الأوسط في بعض الأحيان تصاب بالخوف مما حولها، ومن فرط خوفها صارت تخفي رؤوسها في الرمال. لكنّ هذا التكتيك لم يكن ناجعًا دائمًا، وها هي الآن قد اختفت تمامًا.

من على قمّة الجَمَل تضحك نوفا. لكنها كانت تحتاج إلى صراخٍ

حتى تُسمِع صوتها:

– هناك من كانوا يعتقدون أن ذوبان الجليد في القطب الشمالي لا ينبغي أن يكون مدعاةً للقلق   وعلى أي حال لا يوجد فيه تقريبًا شخص واحد للتزحلق والتزلج... وتحت الجليد كان هناك أيضًا ودائع كبيرة من النفط   وحق النرويج في استغلال النفط يمتد إلى القطب الشمالي تقريبًا. ثم لماذا كل هذه القصص عن إبقاء الدببة القطبية على قيد الحياة؟ ألا يكفي إنقاذ حياة حيوان الباندا؟ ولكنّ نِعام المناخ لم تفهم أنه لو ذاب الجليد لكان ذلك إعلانًا عن ارتفاع حرارة كوكب الأرض برمته. والآن أنا على السنام... سنام جَمل ...!

ويصلون إلى لُو. يساعدها في الارتحال، فبعد قليل ستختفي القافلة عن الأنظار. وبين لحظة ولحظة ستصل الحافلة الكهربائية.

يتبادلان كلٌّ بجهازِه عنوانيهما على السكايب. ويَعِدان باللقاء مرّة أخرى. ويُريها على جهازه الإمارةَ الصغيرة التي جاء منها. لكنّ نوفا غير قادرة على رؤية أيّ شيء من حولها. إنها لا ترى سوى رمال الصحراء.

– ألا يوجد شيء سوى الرمال؟ تسأل نوفا. ألم يعد هناك مدن؟

– بلى، بلى، المدن ما زالت في مكانها، لكنها تحت الرمال.

يلتفت إلى الجهاز ويجد أخيراً مبنًى منعزلا صغيراً، أشبه بمكعب، يعلو متراً أو مترين فوق رمال الصحراء. ويوضح:

– هذه مئذنة.

وتصل الحافلة، فيضربان يديهما الواحدة بالأخرى، بينما تصعد نوفا إلى الحافلة.

مكثت أنّا مع هاتفِها الذكي بين يديها، تتساءل إن رأت حقًّا تلك المرأة التي اختفت في الماضي. هل رأتها أثناء جولتها في أوسلو مع جوناس؟ لقد تحدّثا على أيّ حال إلى كثير من الناس عندما زارا بيت البيئة ليحصلا على بعض الكتيّبات والنصائح التي قد تفيدهما في تأسيس جمعية بيئية. ولكنْ إلى أيّ درجة إذن يمكن أن يكون أحدٌ من أولئك الأشخاص قد تواجد في أفريقيا بعد ذلك بشهر كامل، في مهمةٍ لبرنامج الأمم المتحدة للأغذية؟ لقد تحدثا إلى أناس من مؤسسة الغابة العذراء، ومع امرأة تعمل لصالح منظمة تدعى مؤسسة من أجل التنمية. ولكن هل كانت هذه المنظمات تتعاون مع برنامج الغذاء العالمي؟ هذا مستحيل أو مستبعد.

تتناول الكتابَ الأسترالي الجميل وعنوانه اكتشاف الحيوانات المنقرضة في العالم. كان الكتابُ ثقيلا، وزنُه على أقل تقدير كيلوغرام، كيلوغرام وزيادة ربما. على وجه الغلاف رَسمٌ لطائر الدودو، الذي كان اسمًا لحَمامةٍ عملاقة في جزر موريشيوس، لُوحظ للمرة الأخيرة في عام ١٨٦١ في البداية يأتي رسمٌ لآخر أنواع المُوَا التي أبادها الماوري في نيوزيلندا في حدود عام ١٦٠٠. ثم تأتي رسومات لجميع الثدييات، والطيور والحيوانات الزاحفة التي تأكّد انقراضُها ما بين عامي ١٥٠٠ و ١٩٨٩

طيور الدودو والمُوَا من قواسمها المشتركة أنها لم تكن تستطيع

الطيران. ولم يكن لها رغم ذلك أيّ أعداءٍ في الطبيعة قبل وصول البشر إلى الجزر. لكن منذ قدوم الإنسان أصبحت فريسةً سهلة.

لقد قرأت أنّا في موضع ما أن المُوَا ما زال لها مكان في فلكلور الماوري. ففي نيوزيلندا أو أوتياروا - التي كانت الاسم الذي أطلقه الماوري على هذه الجزيرة – يمكننا أن نسمع الشكوى التالية: لا توجد مُوا، لا توجد مُوا في أوتياروا القديمة. لم يعد لها أثرٌ هنا، لقد أكلوها. لقد رحلت ولم يبق شيء من مُوَا!

في هذا الكتاب الكبير طُبِع نصٌّ كانت قد عثرت عليه على شبكة الإنترنت:

ما يُسمَّى بالقائمةِ الحمراء للأنواع المهدّدة موضوع منشورات غاية في الأناقة والجمال، مع صور ملوّنة تلوينًا خاصًا عن الأنواع التي إما أن تكون معرضة لخطرٍ حرجٍ بالانقراض، أو في خطرٍ، أو معرّضة للخطر. في غضون سنوات قليلة سوف تأتي «كتب جميلة» امتدادًا طبيعيًا بالتأكيد لهذا التوجه، مع صورٍ مذهلة عن الأنواع التي انقرضت وانتهى أمرُها. وهذه الصور تحديدًا هي التي كانت قبل سنوات مضت تزيّن قوائم الأنواع المهددة بالانقراض، وسوف يأتي يوم ستوصف فيه هذه الأنواع بالأنواع المختفية من «الصور الأحفورية»، أي الأنواع التي وسعِها من الوقت ما يكفي لأن تلاحَظ بصريًا قبل أن تنطفئ مع الموائل الأحيائية المحيطة بها.

أليس من سخرية القدر أن لا يتطور فنُّ التصوير الفوتوغرافي - والتخزين الرقمي للمعلومات – إلا في ذات الوقت الذي بدأنا فيه في تدمير التنوع البيولوجي للأرض؟ ولكنّ اهتمام الأولاد بالأحفوريات سوف يُهجَر ليحل محله الولع بصور الطيور والثدييات المنقرضة،

وساعتها يمكننا أن نشهد نهضة جديدة للعبة لُوتُو الصور.

إنه لجنونٌ حقًا. فبأيّ حقٍ أباد الإنسانُ أشكالَ الحياة الأخرى؟

ما الخلل الذي أصاب الكائن البشري يا تُرى؟ هذا ما أرادت أنّا أن تكتشفه في أسرع وقتٍ ممكن، وقد صار عندها الآن فكرة.

تفتح دُرج مكتبها وتُخرج بطاقة الدكتور بنيامين الشخصية. لقد قال لها ألا تتضايق من الاتصال به. ومن باب إرضاء الضمير تُرسل إليه في الحالِ أوّلَ رسالة قصيرة.

ما الذي أصابنا نحن البشر؟ هل بالإمكان أن نتحدث في الموضوع؟ متى يمكنني الاتصال بك؟ تحيات أنّا (نيرود).

لم يتأخر في الرد عليها بعد دقيقة واحدة:

يمكنك الاتصال بي الآن. أنا لا أعمل اليوم. بنيامين.

«أنا لا أعمل اليوم.» لماذا كتب هذا؟ حسنًا، لأنه لو كان في المستشفى لكان النداء بالطبع غير مرحب به. ومع ذلك فإن هنا شيء لا يبدو طبيعيًا. لماذا كان الدكتور بنيامين يبدو وكأنه يصرّ على كونه لا يعمل في ذلك اليوم؟ ولماذا لم يعمل في ذلك اليوم تحديدًا؟

قليل من الفوضى بدأ يعج في رأسها. ولكن قبل أن تتمكن من إعادة النظام إلى تلك الفوضى، اكتفت بطلبه. ولم يكن رده عليها إلا في غضون بضع ثوانٍ:

- بنيامين!

- أنا أنّا.

- مرحبا، كيف عرفتِ...

- لقد أعطيتني بطاقتك.

- حسنًا!

- أأنت متوترة قليلًا؟

- نعم بالطبع. لماذا طلبتني، أنّا؟

بطبيعة الحال؟ لم تفهم أنّا ما الذي كان يقصده. ولكنها تذكرت السبب الذي دعاها لأن تتصل به:

- هل هناك فحوصات نفسية تخص الإنسان بصفته نوعًا؟ إننا ندمر كوكبنا. لماذا نتصرف على هذا النحو؟

- ألو؟

- أنتِ كتبت «ما الذي أصابنا نحن البشر؟ «ولكن ألست على علمٍ بأي شيء؟

- بخصوص ماذا؟

- ابنتي.

- إستر أنتونسن !

- إنها ابنتي، نعم. إذن كنتِ تعرفين ذلك على أي حال؟

- لا، لا. ولكن فهمتُ الآن فقط. في ذات اللحظة! وأنا أفهم أكثر السبب الذي دعاني لكي أطلبك. لقد رأيت صورتها على مكتبك في برواز أحمر. وقد سجلت هذه الصورة.

- لكن الصورة بالمناسبة صورة زوجتي، قبل ما يقرب من ثلاثين عامًا.

- أحقا؟ لا بد أنهما متشابهتان كثيراً

- أجل... ولكن، حدثيني، أنّا. أنا متوتر قليلاً، وفي الحقيقة أبحث أيضًا عن شخص أتحدث إليه.

- الطبيب النفسي ليس في عمله، ثم إنه يبحث عن مرضى للحديث معهم؟

- بكل سرور. هذه هي تعقيدات العقل البشري.

– ما الذي تقصده؟

– هل رأيت حيوانات الرنّة في الآونة الأخيرة؟

تضحك:

– نعم، بلا انقطاع، وأعتقد أنها تتجسّس عليّ لحسابِ بابا نويل.

– ربما تحاول أن تعرف الهدية التي ترغبين في الحصول عليها؟

– ربما أعتقد أنّ الأمور ستمر بخير على إستر، ولا أقول هذا لأني أؤمن ببابا نويل. فأنت أيضًا يجب أن تكون إيجابيًا، دكتور بنيامين. فأنت لا تقدم خدمة لابنتك باستنفادِ قواك. ثم فقد تحتاجُ إلى طاقات في الأيام المقبلة.

– أنتِ على حق، أنّا. وهذه نصيحة جيدة.

– ظني أنها قدّمت عملًا مهمًّا لبرنامج الغذاء العالمي. ومن الطيّب أن يكون هناك مثل هذه النفوس الملتزمة.

وفجأة تتذكر أنّا السببّ الذي جعلها تطلبه.

– والفحصُ النفسي لأمراض الإنسانية، لعل بالإمكان أن نؤجله لمرّة قادمة. سأروي لك أحلامًا هوجاء رأيتُها. حلمتُ أني كنتُ بنتَ حفيدتي، وكنتُ أرى نفسي أيضًا في شخص أمّ جدتي العجوز. ولكن هذا، أيضا، يمكننا أن نتركه للمرّة القادمة.

– هكذا ظني، أنّا. ولك مني كل الشكر على المكالمة.

– من الواضح أني سأتابع الأخبار، دكتور بنيامين.

– بنيامين أو الدكتور أنتونسن.

– حسنًا، دكتور أنتونسن. أعني بنيامين! كان جديرًا بي أن أقرأ بطاقتك بعناية أكثر. ولكنّ الأمر واضحٌ الآن.

– اعتني بنفسك جيدًا، إلى اللقاء!

– وأنت أيضًا. سوف أذكرك!

ليلة شتاء

تجلس في فرجةٍ صغيرةٍ في الغابة تحت السماء المرصّعة بالنجوم المتلألئة. تضع جهازها فوق ركبتيها وتتصفح، وتنتقل بسرعة من مشهدٍ إلى مشهد حتى تكتشف بالضبط ما حصل لكوكب الأرض. تريد أن ترى الدمار. فلهذا السبب هربت إلى الغابة. إنها تريد أن ترى العالم وهو ينهار. فهذه الرغبة تُخجِلها إلى الحد الذي جعلها لا تستطيع أن تفعل ذلك في غرفتها. فقد يدخل عليها أي شخصٍ على حين غرة ويرى ما تفعله. الآن لا بد من أن تَكُفّي عن النحيب والشكوى، يا نوفا!

تتطلع بحدة إلى الشاشة، وتنتقل في العالم باللمس وبالنقر على لوحة المفاتيح، من منعطف إلى منعطف. وتجد كل ما تبحث عنه. وتحصل على مجموعة كبيرة من التطبيقات التي تحصر جميعَ جوانب تدمير الطبيعة.

كوكبُ الأرض ترصدُه كاميرات الويب. تترك بصرَها يجول من ركامٍ جليدي إلى آخر كلما تراجعت الأنهار الجليدية. ومن مقطع فيلمٍ إلى مقطع آخر تشاهد مرّة أخرى الجفاف الذي زحف تدريجيًا إلى أفريقيا وأمريكا وأستراليا والشرق الأوسط. فالحقيقة أمامها بأبعادٍ أربعة. وترى التفاصيل المخيفة للعالم الذي كان قديمًا خصبًا جدًا ومتنوعًا، وتنتقل في اللحظة التالية لتشاهد عمليةً ليست من الأول إلى الآخر سوى تسويةٍ واحدة وفريدة. وتتذكر كيف فقدت المناطقُ

والبلدان والقارات جميعها ثراءَ الأنواع وسحرَها. كل شيءٍ في متناولها سهل للغاية، فالتكنولوجيا روبوت، وأصابعُها الخفيفة ترقص على الشاشة، ولكنّ الرقص مروّع.

بإمكانها الوصول إلى جميع النشرات الإخبارية، وجميع التحقيقات والأفلام الوثائقية عن العالم، والتطبيقات هي التي تقوم بفرز ما تعرضه على الشاشة وتعيشه وفقًا للمعايير التي تحدّدها بنفسها. بإمكانها الوصول إلى كل شيء. لا توجد حدود على هذا الكوكب. لا حدود للإدراك الحسي. تتخلى عن الإلكترونيات. فهي الآن على الخط. إنها مدمنة للإنترنت.

تُكبّر الصور إلى الأمام وإلى الخلف. المحطة وسيلة للسفر عبر الزمن. الأحاسيس تُمتصُّ ما بين أزمنتها. الجهاز مزوّد بمكبّرات صوت جيدة، والعديد من الانطباعات تصل إلى الروح من خلال الأذنين. فهي لا ترى البشر فقط وهم يدمّرون الغابات الإستوائية، وإنما تسمع المناشير أيضًا. وترى فعْل اللهيب، وتسمع طقطقات النار. ترى صُور الأعاصير والزوابع المخيفة، وتسمع هدير الماء، وعواء الريح، وصراخ الناس ونحيبهم.

تتابع عن كثب تناقص سكان العالم التدريجي، وملايين الناس الذين يذهب بهم الجوع وكوارث المناخ، وملايين الناس الذين ماتوا في أتون الحروب الحديثة الميئوسة طمعًا في الاستيلاء على ما تبقى من الموارد، والأسماك والأراضي الخصبة. ما من تعدادٍ حقيقي أُنجِز منذ بداية الكارثة. ولكنْ تشير التقديرات إلى أن عدد سكان العالم الآن أقل بكثير من عتبة المليار شخص.

ما من منظر من المناظر الطبيعية التي يحلق فيها نظرُها وهميّ.

حسبها أن تفكر في معطيَين اثنين في اللعبة: الزمان والمكان. أمازون سنة ١٩٦٠ ليست الأمازون في عام ٢٠٦٠. وسيرينجيتي العام ٢٠٨٠ ليست سيرينجيتي العام ١٩٨٠. وكوكب الأرض في العام ٢٠٨٤ ليس كوكب الأرض في العام ٢٠١٢.

سنةُ أنّا ليست سنة نوفا. لم يعد الأمر ناقصَ واحدة. لقد حان الوقت حان الوقت...

تعود مرّة أخيرة إلى العالم الذي كان، إلى الغابات العذراء التي لا نهاية لها، والسافانا والشعاب المرجانية. ولكن هذه النظم الإيكولوجية السليمة لم تعد موجودة.. ولذلك فعندما تراها تتألق على ذلك النحو على الشاشة يتفتت كبدُها إلى هذا الحد. فكما لو كانت تتأمل صورَ كوكبٍ آخر غير كوكبها الأرضي الذي صار قاحِلًا مُجدبًا وحزينًا.

ويأخذُها البكاء. فتطفئ المحطة، وفي رمش العين كل شيء يستحيل أسودَ كسوادِ الحبر من حولها. ولكن فوق قبة السماء، آلافُ الشموس البعيدة تخترق ثقوبًا صغيرة في الليل. ترفع بصرها إلى نطاق النجوم الواسع في درب التبانة. السماءُ تحفل بشموسٍ مثل شمسها. لكنْ لا تلقي إليها بالًا من فرطِ بُعدها عنها، ولا تجد فيها أي عزاء.

ربما ليس هنالك حياةٌ ذكية إلا على كوكبها هي. ومتى لن يبقى عليه بشرٌ على قيد الحياة؟ هل كل النجوم والكواكب موجودة هكذا ببساطة في الفضاء من دون أن يعلم بوجودها أحد؟

تتمالك نفسَها من جديد وتقرّر أنها لن تذرف الدمعَ بعد الآن. وتقرر أن لا تُحمِّل نفسها حزنًا أو غمًا. فهي لا تريد أن تجعل الذين كانوا سببًا في كلّ ما حدَث لكوكبِها يستمتعون برؤيتها وهي تبكي وتحزن لحالها.

التراث العالمي

تطلُّ أنّا على صُحف الإنترنت لتقرأ مقالات عن احتجاز الرهائن. لا جديد طرأ على القرن الأفريقي. تشاهد نشرة إخبارية موجزة كاملة على إحدى القنوات التلفزيونية. لقد بُثّت في وقت مبكر من ذلك الصباح، لكنّ تحميلها لم يكلفها جهدًا كبيرًا. لقد بدأت تعرف كيف تستعمِل هاتفها الجديد. فما لبثت أن دخلت على تدوينٍ صوتيّ من NRK وأخذت تعيد الاستماع إلى واحدة من ندوات الراديو التي كانت قد استمعت إليها قبل أيام قليلة. كان صوتُ المتحدث صوتًا ذكوريًا:

الإنسان المعاصر كوّنته الظروفُ التاريخية والثقافية إلى حدٍّ كبير، من ذات الحضارة التي أنجبتنا. نقول إننا ندير تراثًا ثقافيًا، ولكنّنا فضلًا عن ذلك تشكّلنا أيضًا بواسطة التاريخ البيولوجي لكوكب الأرض. ناهيك عن أننا ندير تراثًا جِينيًا أيضًا.

لقد استغرق خلقُ الإنسان بلايين السنين. كان لا بد من بلايين السنين إذنْ لخلقِ كائنٍ بشري واحد! فهل سيستمر بقاؤنا في الحياة في الألفية الثالثة؟

ما هو الزمنُ تُرى؟؟ يأتي أفقُ الفرد أوّلًا، ثم أفقُ الأسرة، أفق الثقافة والثقافة المكتوبة، ولكن بعد ذلك يأتي أيضًا ما ندعوه بـ الزمن الجيولوجي. نحن ننحدر من رُباعيات الأقدام القادمة من البحر قبل

٣٥٠ مليون سنة. وفي نهاية المطاف نحصل على محور زمني كوني. نحن نعيش في عالم كوني عمره حول ١٣،٧ مليار سنة.

ولكنّ هذه الفضاءات الزمنية ليست في الواقع بعيدةً بعضها عن البعض الآخر كما تبدو للوهلة الأولى. فمن حقنا المشروع أن نشعر أننا في بيتنا في هذا الكون. فالكرةُ التي نعيش عليها عمرُها ثلثُ عمر الكون تقريبًا، والنظام الذي ننتمي إليه، نظام الفقاريات، استمر وجودُه ليس أقل من عشرة في المئة من زمن الأرض ومن زمن هذا النظام الشمسي. فالكونُ ليس لامتناهيًا أبعد من هذا. أو على العكس: فهو عميقٌ عمق جذورنا وقرابتنا مع التراب الكوني.

فلعل الإنسانَ هو الكائن الحيّ الوحيد في الكون كله من يملك الوعي الشمولي – إدراكٌ مذهل لهذا الكلّ الهائل والغامض الذي نحن جزء أساسي فيه. الحفاظُ على جوهر الحياة فوق هذا الكوكب ليس إذن مسؤولية عالمية بسيطة. وإنما مسؤولية كونية.

من حقّنا المشروع أن نشعر أننا في بيتنا في هذا الكون! إنّها الجملةُ التي كان لها وقعٌ قوي على نفس أنّا عندما سمعت تلك الندوة الإذاعية للمرّة الأولى. فسواء وُجدت حياةٌ خارج الأرض أم لم توجَد فإن الحياة على الأرض تمثل الكون كلّه. وعلى الأرض وجد الإنسانُ، بفضل وعيٍ، في موقفٍ متميز قائم بذاته. لكنّ الإنسان لم يكن بإمكانه أن يعيش من دون حيَوات أخرى. إذ كان الشرط الأساسي لوجود الإنسان، مثلًا، شيئًا متناهيًا في الصغر ولا يكاد يذكر اسمه.. البكتيريا. فحتى البكتيريات كان لها أهمية كونية، لأنها ساهمت هي أيضًا في تشكيل وعي الإنسان بالكرة الأرضية وبالكون برمته. كل

التحية لهذه الأجسام المجهرية. لم تكن هي نفسها تعرف هذه الحقيقة، لكنها لعبت هي أيضًا دوراً كونيًا!

تضحك أنّا لفكرة أن البكتيريا رغم صغرها تساهم في إعطاء معنًى للكون. لذا لم يسعها إلا أن تضحك.

تلقي نظرةً نحو محطة البنزين وتلمح في الخارج يومًا شتويًا رائعًا. فالآن حان الوقت لكي تطلب جوناس! لكنه سبقها. يسكن جوناس في لُو، على مسار بضعة كيلومترات في اتجاه أعلى النهر. لم يلتقيا قط قبل أن تبدأ في الثانوية خلال هذا الخريف. كانت المدرسة تضم طلبة نصف الكون، وكانوا يسكنون أحيانًا على بعد كيلومترات عن بعضهم البعض. فكان ذلك واحدًا من الأسباب التي تحول دون تنظيم اجتماع خلال المساء.

هذه السنة كان الغطاء الثلجي يتيح التزلج في منتصف تشرين الثاني، وفي الفترات الأخيرة انضما إلى التزلج العميق بالذهاب كل من قريته ليجد نفسه في الأماكن المرتفعة حيث كانت عائلة أنّا منذ الأزمنة الغابرة تمتلك شاليهًا في المرعى الجبلي. وهذا بالتحديد بالضبط ما اقترحه جوناس، متذرعًا بأن ذلك اليوم هو الفرصة الأخيرة للحصول على صديقة في الخامسة عشرة من عمرها. لم يجد شيئاً آخر يقوله غير ذلك، لكن أنّا فكرت ثانية في مراسلة عُلا لحفيدتها. فلا شك أنها بالضرورة قد حررت عند حدود ٢٠١٢/١٢/١٢. وإلا لما وصلت إلى هدفها. وإلا لما وصلت إلى هدفها عندما وضعت ذلك الفلتر على المحطة. كان ذلك هو الهدف. إنه المنطق ذاته. ولذا ترد:

– في الواقع أنا مشغولة قليلًا. بأمور معيّنة.

– ذات أهمية كونية؟

– أجل، جوناس. لكنْ ثمة أمرٌ آخر أيضًا. أرأيتَ الأخبار اليوم؟

– نعم، حسب الظروف. لقد مرّ وقتٌ طويل قبل أن أحصل على أخبار منكِ، ولذا كان أمامي كل الوقت لكي أطلع على الصحافة. لماذا؟

– إستر انتونسن.

– في الصومال؟

– نعم...

– والموضوع لغباوته لا يكاد يُصدق... لقد غادرت مطار مقديشو وتوًّا...

– إستر أنتونسن ابنةُ بنيامين! لقد حدّثته على الهاتف قبل قليل.

– تحدّثتِ مع الدكتور بنيامين؟!

– نعم، إنه الدكتور أنتونسن، جوناس. بنيامين أنتونسن.

– حسنًا

– الخطأ خطئي، أنا من عقّد الأمور.

– لكنه طلبكِ حتى يقول لك إنّ ابنته اختطِفت؟

– لا، أنا التي طلبته.

– لماذا؟

– ليس مُهمًّا. كنتُ أريد أن أطلب منه تقييمًا نفسيًا للإنسان بصفته نوعًا. احتقارُنا للحيوات الأخرى، وعدم احترامنا لخَلَفنا الذين سيأتون من بعدنا. ولكنْ ربما طلبته الآن لأني رأيتُ للتو صورة لإستر أنتونسن في صحيفة إلكترونية. ولعل هذه الصورة هي التي ذكرتني بصورةٍ كان بنيامين يملكها في مكتبه. وفي النهاية كانت صورةً لزوجة بنيامين في شبابها، فالبنت وأمّها تتشابهان كثيراً.

- أنّا يمكننا الحديث في هذا الموضوع في الجبل... وبقية الأخبار طبعًا. هل ستأتين؟

وادّعت أنه يترجاها.

- سوف آتي بشرط.

- وما هو الشرط؟

- على أيِّ حالٍ، أمامك ثمانية كيلومترات ستقطعها بالمزلاج. فهي كافية لكي تفكر.

- حسناً؟

- عندي مشكلة يجب أن تساعدني في حلها.

- إليّ بها. سأفعل أي شيء من أجلك.

- ما الذي يجب علينا فعله حتى ننجح في إنقاذ ألف نوعٍ ونوع من النباتات والحيوانات؟

- ماذا ؟ أللموضوع علاقة مع جمعيتنا من أجل البيئة؟

- ليستْ علاقة مباشرة. لكن ينبغي أن أرتّب الأمور في شيء ما في شيءٍ رأيته في الحلم، جوناس، شيء حلمتُ به هذه الليلة.

- موضوع مميّز. لكنْ لماذا ألف نوع ونوع تحديدًا؟

فتضحك:

- إنه رقم بلا كُسور. مثلما في ألف ليلة وليلة. الأطفال يقولون ألفًا عندما يريدون أن يقولوا كثيراً إلى ما لا نهاية، ولكن أنا أقول ألف نوع ونوع.

- أأنت مجنونة؟

- ربما، إني أخشاه أنا نفسي أحيانًا. لكن بنيامين قال إن عقلي سليم.

- فلنثقْ به، إذن.

- عندما نلتقي يجب أن تكون قد فكرتَ في إجابة صحيحة حول ما الذي بمكننا فعله حتى نتمكن من إنقاذ ألف نوع ونوع من النباتات والحيوانات من الانقراض. فإذا نجحتَ ظللْت صديقتك، وإن فشلتَ سأقطع صلتي بك!

- إذن سأحاول أن أصل إلى إجابة. لا تملكين الحق في أن تقطعي صلتنا.

- ظني أني لن أستطيع ذلك، جوناس. إني متمسكة بك كثيراً.

- الآن أرحتِ نفسي. نلتقي هناك في الأعلى، بعد ساعتين، إذن.

- لكن، انتظر قليلا!

- ماذا؟

- أتعتقد أن في الحياة حقائق موازية؟

- أنّا!

- فالأمرُ أني أحسّ من جديدٍ أني أعيش في عالَمين مختلفين. أو أني على صلة ببُعدٍ آخر. وأن هنالك شيئًا آخر على الجانب الآخر... وهو شيء يأتيني فأستقبله.

- كم أخاف وأنا أسمعك تقولين مثل هذه الأشياء!

- أتخاف من وجود بُعدٍ آخر؟ أم تخاف ممّا هو موجود على الجانب الآخر؟

- أخشى أن يكون في رأسك أكثر من واقعٍ واحد في وقتٍ واحد.

- لا داعي للخوف، جوناس. إلى لقاء قريب.

- رافقتك المتعة مع التزلج، إذن! ألا تستطيعين التركيز على الواقع الذي تقتسمينه معي؟

- سأحاول على أيّ حال. إلى لقاء قريب!

- إلى اللقاء.

تمكث أنّا واقفةً في غرفتها غارقةً في التأمل. ثم إذا بذات الحال تراودها ثانية فتعيد التفكير في مقطع صغير آخر ممّا أحست به في تلك الحياة الأبدية التي لا يملكها أحدٌ غيرها، في مشهدٍ عادي جدًا من حياة أخرى، وجزءٍ من كونٍ آخر.

البالونات

تخرج إلى الحديقة مع حفنةٍ من البالونات الحمراء. على كل بالونٍ رسمٌ باللون الأزرق؛ صور ظلية لحيوان منقرض. سوف تنزل لبيعها في محطة استراحة الرحالة. فهي في حاجةٍ إلى المال لأنها توفر الآن لشراء محطة جديدة لجهازها. سوف يرغب مسافرون كثيرون بالتأكيد في شراء بالون أحمر مع صورة أسد أو غوريلا لأطفالهم.

في الحديقة كانت ماما وبابا، كل من ناحيته، على سُلَّمه، يلقّحان أشجار الفاكهة. ليس هناك طنّانات ولا نحل. لقد بدأت الأعداد في الانخفاض بالفعل، قبل مائة عام. وكانت الأسباب كثيرة، ولكن فجأة اختفى النحل ذات يوم. وكل العمل المضني الذي كانت مليارات الطنانات والنحل تقوم به من قبل صار البشر هم الذين يقومون به بأيديهم.

بابا وماما يؤشران لها من على السّلمين. كلاهما ببزّة العمل الزرقاء. وفي عينيها تبدو ماما جميلة، وبابا أيضًا.

– بالونات جميلة! يقول بابا معلقًا.

– من المؤسف بيعها.

تصل أمُّ جدّتها إلى الحديقة ومعها صينية كبيرة. لقد أعدّت طبقًا يُشبه الغراتان. تعرف نوفا أنه غذاءٌ تركيبي. عبثًا حاولوا أن يُقنعوها بأن الطبق يحوي مجموع المكونات الغذائية الأساسية، لكنها تعِبتْ من هذه الأغذية الاصطناعية.

تطلب عُلا مساعدتها في وضْع المفرش على طاولة الحديقة التي وُضع عليها من قبل مزهريةٌ من الخزامى. وتقصد نوفا إلى أمّ جدّتها لتأخذ شيئًا من الصينية. وتنقل باقةَ بالوناتها من يمناها إلى يسراها. ولكن في رمش العين من عدم الانتباهِ تُفلت منها قبضتُها للبالونات. والآن يحدث هذا.

في الحال!

لم تفلتْ قبضتُها على البالونات إلا قبل ذلك بربع ثانية، لقد ارتفعتْ البالونات بطول ذراعٍ من فوق رأسها، وكانت ما تزال قريبةً منها، فكادت تقفز لكي تمسك بها، وتقفز في النهاية لكي تقبض عليها، ولكن بعد أن فات الأوان قليلا. لقد واصلت البالوناتُ ارتفاعها وتناثرت مع الريح، واختفت مثل نقاطٍ حمراء في السماء.

حوض السباحة

كان هناك احتمالان اثنان. فإمّا حلمت أنّا بجميع هذه الحلقات من ماضٍ بعيدٍ في الليلة الماضية. وفي هذه الحالة تكون مجموعةٌ كاملة من المقاطع الملوّنة قد تسلسلت في صفٍّ من اللآلئ، منذ لحظةِ نومها إلى لحظة استيقاظها هذا الصباح. وإمّا كانت تغرف كلَّ أحلامها هذه منذ فترة طويلةٍ من عالم أحلام واحد، وهي الآن فقط تتذكر تلك الأحلام جميعًا. حلم عُلا والياقوتة الحمراء كانا على أي حالٍ جزءًا من حلم هذه الليلة، لأنه يعود إلى الزمن الذي استيقظت فيه، وربما كان هذا الحلم نفسه هو الذي أخرج كل الأحلام الأخرى من محيط النسيان

فأي الاحتمالان أكثر رجاحة؟ وأيهما عصيّ على الفهم؟

لكنْ كان ثمة احتمالٌ ثالثٌ أيضًا، لم تكن أنّا على استعداد لاستبعاده: أنّ كلّ ما حلمت به ربما كان صحيحًا. من يدري، فلعل لها بنتًا لحفيدة في أعماقِ المستقبل، طفلة أعجوبة تستطيع بصورة غير مفهومة أن تنقل انطباعاتها وحياتها لأمّ جدّتها، أي إلى أنّا إذن عندما كانت في عمرِها تقريبًا. ما أكثر الأشياء في الطبيعة التي لا يفهمها الإنسان. الزمن، مثلا. لأنّه، ما هو الزمن؟

لكن ثمة شيء مؤكد: بابا وماما نوفا اللذان كانا كلٌّ على سلّمه يلقح أشجار الفواكه لا يشبهان أبويها من قريب أو من بعيد. لقد كان لكلٍّ منهما جسدُه النظيف تمامًا ولا يشبه أيًا كان ممّن التقَت بهم أنّا من قبل.

لا تذكر أنها رأت يومًا امرأة في جمال أمّ نوفا، حتى في الأفلام.

ولم تر أيضًا بابا في وسامة بابا نوفا. فالبريقُ اليقظ الحاد والحذر الذي تحمله نظرتُه لا يمكن أن يُمحَى، ولم تكن أنّا لتتردّد لحظة في قطع عشرة كيلوترات حتى تراه.

أو ربما كانت بصيرة، وأنّ الناس الذين التقت بهم في حلمها كانوا أناسًا حقيقيين وكانوا سيعيشون لزمن طويل. أو أنها حفَرت فردين محدّدين بواسطة مخيّلتها. ولكنْ أيهما أكثر روعة؟ ربما لأنها هي التي اختلقتهما!

لو كانت تتقن فنّ الرسم لكانت رسمت وجهَي أبوَي نوفا في أدق تفاصيلهما. لو كانت رأتهما في الشارع لكانت تعرّفت إليهما في الحالِ ولكانت تقدّمت منهما لتحيّيهما. ولكان أحدُهما، إما هو وإما هي، حفيدَها أو حفيدتها.

وأمّا الذي ذكّرها أيضًا بالرسالة التي وجدتها نوفا على الإنترنت فهي تلك الرسالة الإلكترونية من عُلا عندما كانت صغيرة. ولكنْ هذه كانت أنّا! هذه الأحلام صارت تدوّخها في كل مستويات دلالاتها؛ الوعي، الحلم.

ولكن ماذا يعني وعي؟ وماذا يعني حلم؟

ففيما كانت في الحمّام إذْ بها تفكر في ذلك اليوم من أيام الربيعِ الذي نزلت فيه إلى الحديقة فوجدت ماما تتجول فيها ومعها شريطُ قياس طولُه أمتارٌ عديدة. لقد تحرّت أنّا الأمرَ وأجابتها ماما أنهم يفكرون في حفر حوض للسباحة في الحديقة. في النهاية لم يكن المشروع مُكلفًا كثيراً، قالت لها ماما، لقد أضحى الثمنُ أقلّ بكثيرٍ ممّا توقّعته هيَ وبابا.

في البداية ظلت أنّا فاغرةَ الفاهِ، ثم صارت قلقةً جدًا، ربما قبل كل شيءٍ بسبب صحةِ والدتها. لم يكن هناك مجال لحوض سباحة في

الحديقة. ولكنّ ماما أصرّت على أنّ المساحة كافية، وذلك بالتحديد ما كانت تقدره. ولكنْ بالطبع يجب التخلص من أشجار الفاكهة. ناهيك عن أشجار الورد وعنب الثعلب. كان عندهم أيضًا مَنْحل في هذه الحديقة الصغيرة، أما تربية النحل هذه فقد قرّر بابا منذ فترة طويلة الاستغناء عنها.

- كان الصيفُ قصيراً جدًا، أنّا. فعندما يشتد حرُّ الشمس من المفيد أن ننتعش بحمّام بارد. ثم إنّ ذلك مفيدٌ للصحة أيضًا.

على العشب كان هناك مقعدٌ أبيضُ اللون وبضْعة كراسيّ من حول طاولةٍ صغيرة. تمدُّ أنّا يدَها وتشير لأمّها بالجلوس. وتفعل الأم ما طلبته ابنتُها منها، وتجلب أنّا الكرسي المقابل حتى تمعِن النظر فيها أثناء محادثتهما.

- وفي هذه المقايسة هل أخذتما بالاعتبار ما تفتقدونه كل عامٍ من إيرادات الحديقة؟ كل التفاحات والإجاصات، والكرز والكشمش؟ والورود، أيضًا؟

تقترح عليها المساعدة في إجراءِ الحساب. وتُذكّرها أنّ المهم في الطبيعة ليس ما يُبهج العين فقط. وتحدثت عما يمكن وصفه بخدمات الطبيعة. ولكن بعد أن قالت هذا، أرادت التأكيد على أنها تعشق هذه الحديقة الجميلة وأزهارها الحمراء والبيضاء، وتعشقها تمامًا كما هي الآن، وأنها تعشق أيضًا المشيَ في الحديقة، وأنها تحب أن تكون أيضًا جزءًا منها. وفي حالِ لم تنتبهِ إليها ماما ما زال طعمُ تسلّق شجرة الكمثرى يراودها أيضًا.

وحتى تتأكد من أنها تفهم ما تقوله لها قالت في النهاية:

- أنا مرتاحةٌ هنا.

ولم تُطرَح مسألةُ حوض السباحة بعد ذلك إطلاقًا.

الخزامى

تنحدِر على طول النهر مع باقةٍ من زهور الخزامى الحمراء اشترتها على ما يبدو من السوبر ماركت.

فجأة يتناهى إلى سمعها سلسلةٌ من القرقعات الصماء على الضفة الأخرى من النهر. تعبر الجسر وتسمع أنّ هذه القرقعات المنتظمة تأتي من غابة صنوبر على قمة التل. ثم ترى شجرةَ صنوبرٍ وهي تسقط. ثم أخرى على إثرها.

تلِجُ في أحد الدروب وتشرع في التسلق لغابة التل الذي يأتيها منه صوتُ القرقعات وتكتشف حشدًا من الرجال بزيّهم الأزرق. كان كلّ واحد يمسك بفأس، ومعًا كانوا يقطعون الأشجار. ربما كانوا عشرين في المجموع. تشعر أن طول الأشجار جميعًا مِتران ووزنها أكثر من مائة كيلوغرام.

أحد هؤلاء الرجال الأقوياء يرتدي قبعة حمراء مع شُرّابَة. لعله قائدُ الفريق. تسير نحوه وترفع عينيها في وجهٍ مشرق. عيْنا الرجل بنفسجيتان، وها هو ذا يضع فأسه بضْع ثوان.

تسأله:

– ما الذي يحدث؟

يمسح الرجل العرق عن جبينه ويجيب:

– نحن الآن نقطع الغابة.

– لماذا؟

فيضحك الرجل، وتظن أنه يضحك لأن السؤال سؤالُ مَن ليس له خبرة ودراية. لكن الرجل ليس عدوانيًا.

– ستقام هنا حظيرة لمحركات هوائية. إذن لا بد من قطع الغابة. تقريبًا، آنستي. هكذا الأمر في كل الحسابات تقريبًا.

– يؤسفني كثيراً أن نفقد الغابة.

ويضحك الرجل مرة أخرى. يتطلع إلى الخزامى الحمراء وهو يقول:

– لكن وربما هذه اللقاء غير المخطط له بيننا، قد يعني شيئاً آخر

– ماذا تقصد؟

– بإمكانكِ أن تسأليني كم من الوقت يستغرق الانتهاء من من هذا العمل؟

– أوافقك! كم يستغرق هذا العمل؟

يرفع إبهامَه وهو يجيب:

– الربيع في بداياته الأولى، ونحن عشرون، وفؤوسنا ثَلِمَتْ. أعتقد أننا سننتهي من هذا العمل مع أعياد الميلاد.

تهز رأسَها.

– لذا أقول لكم عيد ميلاد سعيد!

وتمد إليه الخزامى الحمراء وتضيف:

– تفضل. فهذه الزهور لك على الأرجح.

وينحني لها الرجل الضخم:

– أشكركِ. لعلني أُنهي القصة قبل أن تغادري؟

بعينين حائرتين تتفحص العينين البنفسجيتين وهي تومئ برأسها مرة أخرى. ثم تختم:

– لو كان عندي صفيحة من البنزين ومِنشار آليّ لأنجزتُ هذا العمل كلّه في يومين اثنين.

مفتاح التشغيل

تضع أنّا هاتفها الجديد في جيبِ سترتها الزرقاء، وعند مغادرتها تُلقي نظرة على العلبتين، ثم تدس جميع الوثائق وقصاصات الصحف في كيسين من البلاستيك وتدسّهما في جيب سترتها. وفي الحال تتوجه إلى محطة البنزين، والعَصَوان في يدها اليسرى، وزلاجتاها على الكتف الأيمن.

أمام محطة الغسيل تلمح سيارة كبيرة تنتظر، ومحركها يدور. تضع أنّا زلاجتيها على حافة الطريق، وفي اللحظة التالية تصل امرأة ترتدي معطفًا أصفر اللون وتتّجه نحو السيارة. كانت تحمل نقانق في يدٍ ومجلة في الأخرى. تقول لها أنّا:

- كنتُ على وشكِ إطفاء مفتاح التشغيل ورميه في الثلج، هُنا!

وبخفة متناهية تلتقط زلاجتيها، وَهيّا! ففي الحال صارت في طريقها إلى الجبل.

قالت لنفسها: إننا ندمّر كوكبنا. نحن الذين نفعل ذلك، ونفعل ذلك الآن.

قبل بضعة أيام، نسختْ مفتاحَ شاليه المرعى الجبلي حتى يحصل جوناس على نسخة منه في حالِ وصولِه قبلها. وتساءلت مَن سيصل اليوم أوّلا. كان عليه أن يقطع ثمانية كيلومترات، وهي خمس كيلومترات فقط. لكن جوناس كان أسرعَ منها في التزحلق. التفكيرُ في أشياء كثيرة لن يبطئَ سرعتها بالضرورة. بل ربما العكسُ هو الصحيح. ففي

الغالب كلما فكّرنا بسرعةٍ أكبر تقدّمنا بسرعة أكبر. وبالعكس، كلما تقدّمنا بسرعة أكبر كلما فكّرنا بسرعة أكبر.

أما هي فقد كانت تتزلج وهي تفكر في اختطافِ الرهائن في الصومال وفي المحادثة الهاتفية الغريبة التي أجرتها مع بنيامين. قبل أن تدس هاتفها المحمول في جيبِها تحقّقت مرّة أخرى من الصحف، وقامت ببعض البحوث على جوجل. وقرأت أنّ الأساطيل الأجنبية قد اصطادت جزءًا كبيرًا من الأسماك في عرض سواحل الصومال، وأنّ هذا ربما يكون جزئيًا وراءَ القرصنة في البحر. فعلى مدى سنوات، والصيادون، وخاصة صيادو الاتحاد الأوروبي يمارسون الصيد غير المشروع في المياه الصومالية، بقيمة مئات الملايين من الدولارات سنويًا. وكانت الصومال قد اشترطت من الأمم المتحدة أن تُستعمل السفنُ الحربية التي تكافح القرصنة في الوقت الحالي، في منع الصيد غير القانوني من قبل الأساطيل الأجنبية وقد قرأت أن الصومال احتجت على مشاريع التنقيب عن النفط الكينية غير الشرعية في عرض السواحل الصومالية. ووفقًا لاتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار فإن العديد من الكتل المعنية مِلْكٌ للصومال. لقد تورطت أربع شركات نفط كبرى، ومن بينها شركة شتات أويل النرويجية. ولكن لم تجد أيّ أنباء عن احتجاز الرهائن. باستثناء فقرة قصيرة تشير إلى أن الخاطفين لم يطلبوا بعدُ الحصول على فدية. إنه ليس بالخبر المميز.

تتقدم أنّا في دفعات تزلجية طويلة لغاية المزارع الواقعة في الأعلى. وتتوقف برهة عند آخر المزارع، وتمكث منبهرة أمام صندوق بريدٍ أخضر اللون. ألم تحلم أيضًا بهذه «الصناديق الخضراء»؟ أم كانت مجرد موزع آلي؟ لا، لم تسعها ذاكرتها في معرفة ذلك الشيء بالتحديد. إلا

أنّ عناصر أخرى من حُلمها ستتسرّب إلى وعيها في خلال النهار. فالوقتُ فقط منتصفُ النهار.

هي الآن في غابة لِيا، التي شاهدت فيها نوفا محطتها المحمولة، تحت النجوم. توقفت قليلًا ومكثت واقفة وهي تبتسم.

في هذه الغابة كان لأنّا مخبؤُها السري، مرجٌ طبيعي يخلو في فصل الشتاء تقريبًا من التلوث البصري، لأنه محميٌّ من أضواء القرية ومن أضواء ميدان التزلج الألبي. كان في وسعها أن تأتي إليه في الظلام الدامس لتتأمل ليلَ العالم، تمامًا كما تفعل نوفا.

مع ذلك كانت الحياة على كوكبها أكثر إثارة للانبهار من كل الأجسام السماوية التي لا حياة فيها مجتمعة. أليس السنجاب أروع من أيّ ثقب أسود؟ أليس الأرنب البري أو الثعلب أهم من سوبرنوفا جامدة؟

ففي النهار أيضًا، قد يحدث أن تذهب إلى الغابة عندما ترغب في أن تكون وحدها. مؤخراً تشاجرت مع جوناس. كان الأمر يتعلق بما وَصَف به «رؤاها»، وقد حزنت كثيراً، ومن شدة حزنها انسحبت إلى الغابة.

لم يسبقْ لها أن صادفت شخصًا في تلك الغابة. ولكنها رأتْ يحاميرَ، كثيراً ما تخيلت أنها مخلوقات أغرب من البشر وأكثر غموضًا. فهذه الكائنات لا تتردد على المدارس، وليس لديها واجباتٌ تفكر فيها. وليس لها بيوتٌ تأوي إليها، وليس لها دِينٌ ولا تأمين. وليس لها أسماء، ولا أرقام ضمان اجتماعي، لكنها ببساطة، هي. ومع ذلك فكلها نُبل ورفعة.

تُرى، ما الذي يدور في رأس اليحمور؟ وهل ما يدور في رأسه

يختلف عمّا يدور في رأس الجمل وحيد السنام؟

في حلمها كانت نوفا في نفس تلك الفرجة. ولكن لم يكن هو المكان الذي كانت هي فيه. فهنا ستكون مع جهازها بعد سبعين عامًا. كما كان هناك شيء آخر أيضًا وهو أنّ اختيار نوفا لهذه الفرجة بعينِها كملجأ تختبئ فيه ليس صدفةً بالضرورة. فلعل عُلا هي التي اصطحبتها إلى هناك ذات يوم. لقد قرّرت أنّا على أيّ حال أنه إنْ قُدّر لها وصارت أمَّ جدّ فتاةٍ اسمُها نوفا فسوف تُريها هذه الفرجة في الغابة

وحين قدّرت أن أفكارها بدأت تدور في حلقةٍ مفرغة انفجرت ضحكًا. وقد اشتدت ضحكاتها حتى أخافت بعض حجل الثلوج التي من خوفها طارت في الحال في سماءِ الغابة. ولكن ما لبثت أنْ واصلت سيرَها، وبعد مضي ربع ساعةٍ إذ بها تقف في الأعلى فوق التلة. كانت القمةُ المهيبة غارقةً في شمس الشتاء، وكان الجبل يمتدّ أمامها عاريًا تمامًا.

الدروب

أوشك الخريف على نهايته. لقد وضعت وشاحًا أحمر وسارت في درب يؤدي إلى شاليه مرعى الجبل القديم. تسلقت التلال الوعرة وهي تصل الآن إلى قلب الهضبة. هنا أيضًا أشجار البتولا تنمو في صفوفٍ متراصة. تعرف أن المساحة التي تتقدم فيها كانت فيما مضى جزءًا من الجبل العالي فيما وراء حدود الأشجار، لكنّ ما كان أرضًا خالية صار اليوم أرضًا تغطيها أشجار البتولا وأشجار الصفصاف القزمية. وهنا في أعماق هذا الغطاء النباتي الكثيف، لا ترى لا قمةً ولا الجبال الزرقاء في المدى الممتد أمامها. تعرف أن القمم العالية مع الطحلب وحزاز الصخر موجودة في مكان ما وراء غابة أشجار البتولا. وهي تعرف وجود هذه الجبال العالية كما تُعرَف الأساطير القديمة والقصص الخرافية. ولا شك أنها تعرف التضاريس بما فيه الكفاية لكي تعرف أنه في هذه المتاهة من الطرق والدروب ستكتشف ذات يوم كيف الوصول إليها. ولكنها من حيث هي الآن غير قادرة على رؤيتها. ومع ذلك فهي تعشق المشي فوق هذه الدروب وبين جذوع أشجار البتولا البيضاء. الأشجار والخلنج تتوهج في ظلال الألوان الصفراء والحمراء الساطعة، وفي هذا العام يحفل نباتُ الخِراج بشجيرات قمام آسي والعنبية.

تتقدم بخطى خفيفة كأنها تحلق على ارتفاع بضع ملليمترات فوق الأرض. وتصل إلى مفترق طرق. ومن دون تفكير تنتقل من مسار

إلى آخر، لا شيء يستعجلها، ستذهب إلى شاليه مرعى الجبل في وقت لاحق.

يكاد الخجل يملؤها وهي تثمّن جميع هذه المسارات والدروب، لأنها تعرف أيضًا أن هذه الغابة من أشجار البتولا التي تكاد تكون بلا نهاية تعني أن الكثير من النباتات والحيوانات الألبية قد اختفت. لقد فَقَدَ المشهد تلك الطبيعة الجبلية التقليدية التي كانت تأتي فيها الأبقار والأغنام والماعز إلى مرعى الجبل. وتعرف أن الثمن المدفوع لهذه المتاهات والدروب في غابة أشجار البتولا هو الجفاف الحارق، والمجاعة، والأزمة المناخية في أماكن أخرى في أنحاء العالم.

ولكنْ هنا، تتمادى في هذا المشهد. تشعر أنها في منزلها. وعندما تصل إلى نقطة حراسة حمراء في الغابة، ويقف جندي بالزي الرسمي أمام حاجز متين، يفاجئها الموقف، ولكن ليس كثيراً، لأنها في غابةٍ وتعرف قواعدها.

الجندي يريد أن يفتش محطتها. يلمس الجهاز وينقر عليه بسرعة البرق. ويذهب إلى مائةِ موقعٍ مختلف. ثم يعيد إليها الجهاز، ويرفع الحاجزَ ويدَعُها تمر.

شاليه المرعى الجبلي

تفتح أنّا شاليه المرعى الجبلي. كان ممرّ المدخلِ باردًا وقاسيًا، لكنّها تُشعل النار في الموقد وتضع الماء لكي يغلي لإعداد الشاي. لقد وصلت إلى الشاليه مع جوناس، وكان هذا قاسيًا بعض الشيء، أيضًا

في بعض الأحيان عندما تخلو لنفسها يراودها شعورٌ غريب بأنها بصحبة عدد من الأصدقاء المتوارين عن بصرها. فتسمع أحيانًا أزيز أصواتهم، ليس ما بين الجدران، ولكن في داخل رأسها. وإذا كان مزاجُها مهيئًا لذلك تجيب نفسَها بصوتٍ عال: «لا، أنا بالتأكيد لا أتفق معك حول هذه النقطة ! « أو:

«بالضبط! هذا ما كنت أعتقده دائمًا!» في بعض الأحيانِ كانت تتحدّث بصوتٍ عالٍ جدًا فيخيف صوتُها الطيورَ الصغيرة أمام الشاليه. فلو باغتها شخص في تلك اللحظة لاعتقد أنها تتحدّث مع نفسها. لكنها لم تشعر قط بالخوف من هذا النوع من الانفعالات.

فجأة تسمع صوتها يصرخ في الفراغ:

-إسترا كيف حال إستر؟

تسارع أنّا بإخراج الهاتف من سترتها. كانت الشبكة جيدة. تدخل على موقع صحيفتها المفضلة، وهذه المرة كان هناك جديد، الكثير من الجديد:

«آخر الأخبار: الرهينةُ الأميركية والرهينة المصرية في الصومال أُفرج عنهما وتمكنتا من عبور الحدود الكينية، حيث تتكفل بهما السلطات الكينية وموظفو برنامج الغذاء العالمي. فقط النرويجية الإنسانية إستر أنتونسن ما زالت في الأسر في هذا البلد من القرن الأفريقي التي تنخره الحرب سارة هامس وعلي الحامد (الصورة) يجلبان معهما مطالب الخاطفين. فلكي يُفرَج عن الرهينة النرويجية يشترِط الخاطفون ضمانات من شركة شتات أويل بأن لا تلتزم مع كينيا في ما يصفه محتجزو الرهائن بالحَفْر غير الشرعي عن النفط في مياه الصومال الإقليمية. هامس والحامد يصفان الخاطفين بالمهنيين والحازمين... »

لم تجد أنّا حاجة لقراءة المزيد. وتطلب بنيامين. ولم تمض ثوانٍ قليلة حتى جاءها الرد:

- أهلا!

- معك أنّا. كيف حالك؟

- أنا مضطر لأن أختصر المكالمة، لا أستطيع أن أعطّل الهاتف!

- ولكنْ هل معك من يساعدك؟

- يجب أن أساعد أنا أيضًا. إستر لها زوج وطفل.

- هل بالقرب منك شخص ما؟

- ليس معي أحد الآن. فأنا على اتصال دائم مع وزارة الشؤون الخارجية.

- أمن اتصالٍ مباشر مع إستر من أي شخص؟

- لا. ما يشغلني أكثر في هذه الساعة هو كيف حالها في هذه اللحظة.

- بالطبع.

- منذ طفولتها وهي تعاني من رهاب الانغلاق. أتفهمين ما أقصد؟

- الخوف من الغرف المغلقة.

- وأنا الطبيب النفسي لم أفلح في علاجها. فعندما تكون في نيويورك تفضل أن تصعد ثلاثين أو أربعين طابقًا مشيًا على الأقدام بدلًا من أن تأخذ المصعد. ولكن يجب أن أنهي المكالمة أنّا. لا يسعني أن أحدّثك أكثر من هذا.

- انتظرْ!

- بسرعة، هيّا!

- تمالكْ نفسَك! يجب أن تحاول كبْت مشاعرك السلبية! خذْ هاتفك واركضْ ركضًا جيدًا. يجب أن تُطلق مكبوتاتك! هيّا أطلِق مكبوتاتك!

- أنتِ طفلة مميزة، أنّا. ولكنْ شكرًا!

وحتى تتحرك هي أيضًا ولا تظل تقضِم شفتيها تسحَب أنّا كيسَيْ المقالات الصحافية والوثائق من جيب معطفها، في البداية تكتفي بوضعها على خزنة قديمة، لكن بعد برهة تمسك بها وتوزعها على الطاولة الكبيرة. ما هو العالم في أحدِ طرفيه؟ وما الذي يجب فعله في الطرف الآخر؟

ترصد جوناس بلا انقطاع. هنا على الكورنيش حسبها أن تقف بالقرب من النافذة وتنظر إلى اليمين لتحصل على منظر واضح على امتداد عدة كيلومترات إلى الجنوب الغربي. فمن هنا تنتظر قُدومَه، لكنها لم ترصد بعدُ أيّ حركة منه على الطريق المفتوح، حتى في المنحدر الحاد الذي سيضطر إلى النزول فيه عند نهاية مجال رؤيتها.

الزمن منتصفُ النهار، قبل بضعة أيام على الانقلاب الشتوي.

كانت الشمس منخفضةً في السماء. وكان النور يأتي تقريبًا من الزاوية اليمنى نحو النافذة، ويلدغ عينيها.

كانت تأمل في أن لا تكون إستر مكبّلة في غرفة مظلمة، ورأسها مغروسًا في الطين. لكنها آثرت الإيمان بأنّ مختطفيها يعاملونها معاملةً مقبولة. وفضلًا عن ذلك كانت تأمُل في أن تقدّم شتات أويل في أقرب وقتٍ ممكن الضمانات المطلوبة من قبل الخاطفين. وإلا فستقدّم غدًا التماسًا إلى جمعيّتها البيئية وتحاول أن تجِد وسيلةً للتحرك!

في إحدى القصاصات كان الموضوع يدور حول الإيمان والرجاء. وكانت هذه القصاصات من علبة ما هو العالم؟

فحسب النظريات السارية وُلد الكونُ قبل حوالي ١٣،٧ مليار سنة. وغالبًا ما يسمى هذا الحدث بـ «الانفجار العظيم». وضْع علامة يساوي بين ولادة الكون وبداية أي شيء قد يكون استنتاجًا متسرّعًا. فمع هذا الانفجار العظيم يمكننا أيضًا أن نحتمِل وجودَ استمرارية صلبة من حالة إلى أخرى.

إنّ ما يمكن أن يوجَد «تحت» أو «وراء» الكون لا أحد يدركه. فالعالم لغزٌ هائل. ومن هذه الناحية قد يكون من قبيل الاحترام الجم الاكتفاء بالانحناء أمام ما لا يمكننا سبره.

مشاهدةُ ليل العالم، يعني الاعتراف بحدود معرفتنا. ففي ما وراء هذه الآفاق توجد إمكانيات الإيمان التي لا حدود لها...

من حقنا أن نعتنق دينًا من الأديان، وينبغي أن يكون لنا الحق في أن نأمل في خلاصٍ لهذا العالم. ولكن ليس من المؤكد أن سماء وأرضًا جديدين في انتظارنا. ومن غير المحتمل أيضًا أن تُنظِّمَ قوى علوية يومًا للحساب الأخير. ولكن ذات يومٍ سوف يحاسبنا خلفُنا. لو نسينا أن

نفكر فيهم. فهم لن ينسونا أبدًا.

النظر إلى الكون يعني الاعترافَ بحدود معرفتنا... أو يعني النظر في أعماق روحنا. لقد رأت أنّا أنّ الأمور هنا لا تقل غرابة عنها هناك. ولكنْ هل بوسعها أن تتخيل صلةً ما؟ هل هناك صلة بين كل الأسرار الخفية التي كانت تعيشها في أعماق عقلها وبين كل الأسرار التي تختفي وراءَ الكون المادي هنا، خارجها؟

كوتات الانبعاثات

المطرُ ينزل حِبالا. ترتدي أحذيةً طويلة وتمشي تحت مظلتها الحمراء الكبيرة. خرجتْ فقط لكي تشتري شيئًا من البقالة. ربما بعض التوابل لإعداد العشاء. لقد كان هناك نقصٌ في العديد من المواد الغذائية في الآونة الأخيرة.

أمام السوبر ماركت تلمح معرضًا صغيراً. إنها المرّة الأولى التي ترى فيها شيئًا كهذا.

يقف رجلٌ أبيض الشعر يرتدي كنزة رمادية وراء طاولة غارقة في كاتالوجات متوهّجة الألوان. تقترب منها وتتوقع أنها مجلات الأسفار القديمة. تبدو كلها لامعةً وجديدة، لكنْ تعرف أنها تعود للأيام الخوالي. فهذا النوع من الكاتالوجات لم يعد يُطبَع في أيامنا هذه.

في إفريز المحل عُلّقت لافتةٌ زرقاء نُقِش عليها: أرصدة كربون بأسعارٍ رخيصة.

تمسك بأحد الكاتالوجات وعليه صورٌ لشواطئ ذهبية وأحواض سباحة زرقاء لامعة. يُرسل إليها الرجلُ صاحب الشعر الأبيض ابتسامةً فكهة. يقف كلٌّ منها تحت مخبئِه، تحت موجات المياه، ويبدو الرجلُ معجبًا بمظلتها الكبيرة.

– رحلةٌ قصيرة في الشمس، شيءٌ جميل، أليس كذلك يا صغيرتي؟ أرصدة – الكربون، من هنا.

تضع الكاتالوج وتشير بإصبعها إلى الطاولة وتقول:

- عمرُ المجلات لا يقل عن أربعين عامًا.

- هذا صحيح، يجيبُ الرجل صاحبُ الشعر الأبيض.

- ليست أسفارًا حقيقية، هذه التي تبيعها هنا. ولذا لا حاجة لي إلى أرصدة - كربون.

ينظر إليها في اندهاشٍ،بل في انزعاج تقريبًا.

- من قال إن هذه الأرصدة يمكن أن تكون حقيقية؟ إنكِ تفهمين على أي حالٍ أن المسألة مجرد لعبة، أليس كذلك؟

يقطع استمارةً من دفتره، ويسحب قلمًا أحمر من جيب قميصه ويسأل:

- ما اسمك؟

- نوفا، تقول.

- اسم العائلة؟

- نيرود.

يملأ الاستمارة ويمدّها إليها فتقرأ:

١- واحد- رصيد-كربون. نوفا نيرود صار من حقّها أن تبثّ طنًّا من ثاني أكسيد الكربون، المطابق لرحلة بالطائرة لشخصين من أليكانتي إلى نابولي.

تنظر إلى الورقة، ثم إلى الرجل.

- لكني لست مسافرة.

فيهز الرجل رأسه:

- لهذا السبب مُنح لك رصيد-الكربون هذا مجانًا. لو كنتِ فكرتِ حقًا في إرسال طنٍّ من ثاني أكسيد الكربون لكنتِ بالتأكيد بالطبع دفعتِ الثمن. لا بد على أيّ حال من ثمنٍ لتلويثِ الغلاف

الجوي من حول الأرض.

- بالطبع...

- ولكنكِ الآن فهمتِ قواعد اللعبة. تستطيعين الذهابَ إذن وضميرك مرتاح، شريطةِ أن تشتري أرصدة —كربون تناسب المسافة التي ستقطعينها. فالكلُّ يعتمد على عملية حسابية بسيطة نسبيًا. لكنها لم تفهمْ المنطق الذي قصده.

- أتقصد أني أستطيع أن أسافر من دون أنْ ألوّث الجو، فقط بشرائي أرصدة- كربون؟

يهزّ الرجل صاحب الشعر الأبيض رأسَه في حركة قوية:

- أجل، ما دمتِ تسافرين بطريقة الكربون المحايد، وهي طريقة للسفر أكثر نعومة بكثير من السفر بطريقة الكربون السلبي. وهذا الفرق الكبير، تحصلين عليه بورقة مائة أو ورقتين.

تُلقي مرة أخرى نظرةً على تلك الصور الملونة. وتغريها أشجارُ النخيل والشواطئ. على بعض الصور كُتب «سعر معقول»، «سعر محدد» و«أدنى سعر في هذا الشتاء». تتطلع إلى الرجل صاحب الشعر الأبيض وهي تقول:

- إذن سأشتري من أرصدة- الكربون ضِعفَي الكمية التي أحتاج إليها. أليس من المفيد للمناخ أكثر أن أسافر كثيراً، في هذه الحالة؟

يفكر الرجل بحدة. يبدو أنه يجري عملية حسابية. لكنه يهز رأسه وهو يجيب بلهجة صارمة:

- إذا تمسكنا بهذه الرياضيات الأساسية نفسها، فسيعني ذلك أنك ستسافرين سفراً كربونيًا إيجابيًا. إذن كلما سافرتِ أكثر كان ذلك مفيدًا للبيئة. بضْع عُطل نهايات الأسبوع هنا وهناك، وهُوبْ،

ستكونين قد ساهمت في امتصاصِ كمية من الغازات المسببة للاحتباس الحراري خارج الهواء. ومع هذا أيضًا تكسبين أرصدة بلا رسوم. هذا جيد، يا عزيزتي. أعتقد أنك فزتِ بهذا الشوط.

تلتفت فجأة فتهتزّ مظلتها الضخمة فيتدفق الكثير من الماء على الطاولة وما عليها من كتالوجات. لا تعرف إن كان ذلك حادثًا بالصدفة أم أنها فعلت ذلك طوعًا. لكنها تنحني انحاءة صغيرة إلى الرجل صاحب الشعر الأبيض، فيتسرب منها جدولٌ صغيرٌ على جميع كتالوجات السفر، وتقول في حركة اعتذارٍ

- اغفرْ لي! إنه هذا الطقس الملعون!!

فرصة جديدة

تظل أنّا متشبّثة بالنافذة. وإذ بها هذه المرّة ترى من بعيدٍ برغوثًا أحمرَ يقترب منها. لكنّ أشعة شمس كانون الأول تُبهرها فتمسك المنظارَ وتخرج لتنظر من على الشرفة. نعم، إنه جوناس في زيّ التزلج الأحمر! فلا أحد غيره يتزلج بهذه الهيئة.

بعد مرورِ عشر دقائق كان يقف على ألواحِ الأرضية الواسعة وهو يتنفس بجهدٍ مثل الرعد. ومن شدة البرد الذي كان ما يزال يملأ ممرّ المدخل صار نَفَسُه يخرج في سحاباتٍ بيضاء. تخلع قبّعتَه الزرقاء التي تُغطي أذنيه، وتُمرّر ذراعَها حول عنقه، فيضمّها جوناس إلى صدره. كان ما يزال يلهث لهثًا.

– أنتِ هنا... منذ... وقتٍ طويل؟ يسألها.

– بما يكفي من وقتٍ حتى أشتاق إليك. أقصد، كثيراً جدًا.

– أنتِ هنا وحدك؟

فتضحك.

– طبعًا نعم، جوناس. لم أصطحب معي اليوم أيَّ صديقٍ خفيّ، ولم أرَ لا أقزامًا ولا غير ذلك من المخلوقات.

كان ما يزال يلهث.

– أتعرفين... المزيد.... حول... حول اختطاف الرهائن؟

تذهب أنّا لتُحضر هاتفها، وتفتح مقالة الصحيفة وتمدّها إليه. وفيما هو يقرأ تشرع هي في سرد قصتها عليه:

- لقد تحدثتُ إلى بنيامين. لم يكن في كامل قواه. لكنْ أظن أني نجحتُ في أن أشدّ عَضُدَه قليلا.

- كيف؟

- اقترحتُ عليه أن يركض. صحيح أن الركضَ لا يحل المشاكل، لكنه لن يضيره.

يستعيد أنفاسه. يُقبِل عليها، ويجمَع يديه حول رأسِها..

- أنا، يقول، كنتُ دائمًا أقول لنفسي أنك محلّلة نفسية بارعة.

ترفع عينيها إليه:

- دائمًا، جوناس، أم منذ ثلاثة أشهر؟

- ليس للأمر أي أهمية. أشعر أني أعرفكِ منذ زمن بعيد.

لمْ يُبعِد يديه عنها إلا في هذه اللحظة. لكنه يستمرّ في النظر في عينيها. أنّا تهوى هذا! كم كانت تتمنّى أن يظل جوناس على هذا الوضع، عيناهُ في عينيها لساعات طوال. ساعات تطول وتطول إلى أن يشرع أحدهما في الضحك، فيضحك الثاني لحظتها لا محالة.

يلقي نظرةً إلى كل الأوراق والقصاصات الصحافية المنشورة على الطاولة. لقد كُلّفت أنّا بأن ترأس مكتب جمْع القصاصات في جمعيتهما البيئية، وكانت هي المرّة الأولى التي تُقدّم فيها نتائج نشاطها.

- كم أراني متلهفة لمعرفة إن كنتَ قدمّتَ شيئًا أنت أيضًا، قالت.

يبتسم ابتسامةً غامضة وتحسّ أنّا أنه لن يخيّبها. وتضيف:

- لكنني لن أعذّبكَ. أوّلا، ربما أستطيع أن أشرح لك السببَ وراء تكليفِك بهذه المهمة اليوم.

- هل هو حلم رأيتِه هذه الليلة؟

يحاول أن يشدّها إليه من جديد. لكنّها تتشنّج. فالآن، ستقصّ عليه شيئًا.

– لقد أيقظني حلمٌ جنوني، مهمٌّ للمسألة التي عليك حلّها، ولكلّ القصاصات الصحافية التي على هذه الطاولة، ثم مهمٌّ في آنٍ للجفاف في القرن الإفريقي. هل أنت معي؟

– لا، أنّا، لكنْ واصلي.

ينهار على المقعد وظهره إلى النافذة. وتظل أنّا تومئ وتلوح إليه بحيوية:

– حلمتُ أني كنتُ أعيش في بضعة أجيال. كان ذلك بعد عصر النفط، وكانت كل احتياطيات الكربون الأحفوري قد احترقت وأُطلقت في الهواء. وقد أدّى احتراقُ الغاباتِ العذراء وتحلّل أراضي الخث العضوية التي يبلغ سمكها أمتاراً عديدة، إلى ارتفاع تركيزِ ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، وإلى إغراق هذا الغازِ الحمضي نفسِه في بحارِ العالم، وهو أمرٌ مدمّر جدًا لموارد الأرض، ومُضرٌّ على الخصوص باحتياجات الإنسان الغذائية.

يرفع عينيه إليها وهي تتكلم:

– لقد حفظتِ درسك في العلوم الطبيعية جيدًا، أنّا....

كانت سعيدةً برؤيته أيما سعادة، ولذا لم تدع هذه الملاحظة تُنغّصها. لكنها ردّت عليه:

– أحاولُ أن أقص عليك حلمًا رأيته، جوناس! قليلًا من الاحترام، أرجوك! الاحتباس الحراري أدى إلى تصحّر المناطق المدارية، وهو ما أدى إلى إطلاق جرعةٍ إضافية من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي. وهكذا انطفأت آلافُ الأنواع، كل القردة الكبرى اختفت، ولم يبق، مثلًا، سوى ثلاثة ليموريات ملغاشية. لكنّ حشرات هائلة، مثل النحل والطنّانات انقرضت كليًا أو جزئيًا. فالناسُ إذن لم يجدوا

بدًا من أن يُلقّحوا بأيديهم عددًا من النباتات الغذائية الضرورية لزراعتنا. لقد حدث تدميرٌ كامل للطبيعة، وانهيارٌ كثيف للأنظمة البيئية، وصارت الحضارةُ شبه معطّلة، وتقلّص سكانُ العالم تقلصًا مخيفًا بسببِ الأضرار البيئية. ثم جاءت الحروب الأخيرة على الموارد وصار كل شيء منتهيًا تقريبًا. وضربَ الصمتُ ما تبقى من مجتمعات محلية حية.

- والأدهَى من ذلك، أن هذا يمكن أن يحدث فعلا، يقول جوناس.

لقد أخرجتْ فناجين الشاي والبسكويت وأقبلتْ عليه مع إبريق الشاي. وينتهِز الفرصةَ لكي يحاول احتواءها، لكنها تُفلت منه في ابتسام، وفي الحال تعود إلى زاوية المطبخ.

- ولكنْ اسمعني، أرجوك، تقول. كان عندي تابليت مُذهل يمكن أن ترى فيه كل ما كُتب في تاريخ البشرية، وكل ما سُجّل على أشرطة أفلام أو فيديوهات، وكل ما التقطَه الويبْ كامْ في الطبيعة. كان يسعني أن أرى كلَّ ما حدث للكرة الأرضية، بالتصوير البطيء. وكان بإمكاني أن أقضي الساعات في دراسة الصور المتحركة للنباتات والحيوانات المنقرضة منذ زمن بعيد.

- وهذا التطور جارٍ الآن على نطاقات واسعة...

تلتفت فجأة.

- أحسستُني مُهانةً ومخدوعة.! مواردُ الكرة الأرضية نُهبت من قِبَل أجيالٍ سبقتني. كنت أعيش مع بابا وماما، ومع أمّ جدتي العجوز، في البيت الذي أسكنه الآن، بل وحتى في الغرفة نفسها، ولكنْ في الحلم كانت الغرفة حمراء مثل الدم. كان اسمي نوفا، لقد فاتني أن أقول

لك هذا، وكانت أمّ جدتي تسمَّى أنّا، حتى وإن كنا في الحياة اليومية ندعوها عُلا.

- أنّا، مثلك تمامًا...

تعذّر عليها كثيراً أن تروي كل ما رأته في الحلم، لأنها كلّما شرعت في سردِ شيءٍ من أشياء الحلم اقتضي هذا الشيءُ شيئًا آخر لم تكن قد وصلت إليه بعدُ، ولا تستطيع لأسبابٍ موضوعية أن تصل إليه قبل أن تُنهي ذلك الذي كانت بصددِ سرده.

- وفضلًا عن ذلك كان عمرُها ستّةَ عشرَ عامًا وتمامًا في ذات اليوم مثلي. حدَثَ هذا في عام ٢٠٨٤، وكانت أمُّ جدتي في السادسة والثمانين من عمرها.

يصفّر جوناس بصوت عالٍ.

- إذن، بدأتُ أفهم منكِ شيئًا.

- كانت علاقاتي مع أمّ الجدّة هذه جدّاً معقدة. فعلى الرغم من أني كنتُ أحبّها كأمّ جدّة، بيْد أني كنت أمقُتها كممثّلة لجيلٍ جشعٍ عاش قبلي وهو يعرف الاتجاه الذي تسير فيه الأمور، من دون أن يفعل ما يكفي لقلب مجرى الأشياء. لقد اشترطتُ استعادةَ كل الأنظمة البيئية سالمةً سليمة، تمامًا كما كانت وهي في عمري. وإلا لكنتُ طردتُها من الغابة. أقرُّ أني كنتُ على استعدادٍ لأقتل أمّ الجدّة، تقريبًا كما كان أطفالُ الأساطير القديمة ينفّذون القانون بأيديهم ويتخلّصون من الساحراتِ والأقزام.

- ثم أفقتِ من النوم.

تهزّ رأسَها. ولكنْ كيف لي أن أواصل الحلم؟

- محطةُ البنزين التي تراها الآن كانت فيما مضى محطة خدمات،

لأنه لم يكن في ذلك الوقت سياراتٌ على الطرقات تقريبًا، باستثناء سيارات بيضاء، على ما أذكر الآن. لكني سأعود إلى هذا الموضوع لاحقًا. في المقابل كان هناك قوافل تتفاوت في طولها لعربٍ كانوا يجتازون الجبلَ بجمالهم في اتجاه شمال النرويج. وفي كثيرٍ من الأحيان كانوا يحطون الرحال لتناول الطعام والاستراحة، هناك حيث كانت محطة البنزين قديمًا.

- عرب؟

- كانوا لاجئين مناخيّين. فالبلادُ التي كانوا يأتون منها نسَفَتْها ريحُ الصحراء تمامًا، وذات مرّة جاء فتًى عربي وأصيب بالمرض فسكن عندنا في البيت في غرفة الوسائد، إلى أن تعافى تمامًا. كنا نقضي الوقت معًا، فنلعب لعبة اللودو وألعاب زهر النرد الأخرى.... وعندما أوشك على الذهاب في النهاية أهدى عُلا ياقوتةً كبيرة وهو يصفها بخاتم علاء الدين الحقيقي.

- كم من وقتٍ أمضاه الفتى العربي في غرفة الوسائد، أراد جوناس أن يعرف وقد ارتابه بعضُ القلق.

لم تُجبْه أنّا. حسبها أن تتذكر أيَّ حلم رأته في منامها.

- ابتداءً من ذلك اليوم صارت عُلاً ترتدي ذلك الخاتم الأحمر دائمًا. وذاتَ صباحٍ دخلتْ إلى غرفتي وهي تقول إن كلَّ العالم، وكل الأنواع النباتية والحيوانية التي اختفَت سوف تحظى بفرصةٍ جديدة. كانت تلعب بياقوتَتِها الحمراء، وكان من الواضح أنّ هذه الفرصة الجديدة التي ستُمنَح للعالم كانت على صلةٍ مع ذلك الخاتم. ثم بدأتْ الغرفة تترنّح، وفي النهاية بدأت عُلا تغني بصوت يثير الرعشة. كان هذا الصوت القوي المدوي ينشد: كل الطيور على صغرِها المتناهية

هي... الآن عائدة.. وهنا أفقتُ من نومي، جوناس، كان هذا قبل بضع ساعات فقط. لقد أفقتُ من نومي وسمعتُ الطيور في الخارج. أفقتُ من النوم وأنا على يقينٍ تامّ بأنّ الحلم كان حقيقيًا، وأنّ أمّ الجدّة قد نجحت في ما كانت وعدتني به. كان العالمُ أمام حظٍّ جديد حقًا، ونحو مليون من النباتات والحيوانات زُرِعت من جديد. وأقامت واستقرت من جديد كما كانت، مرّة أخرى!

لبث جوناس جالسًا يهزّ رأسه.

- شيءٌ لا يصدق. بدأتُ أنا نفسي أصدّق هذا الحلم.

- لكنّ الذي كانت مسؤوليتُه في الحلم تقع على عاتق أمّ الجدّة صار الآن على عاتقي أنا. فجأةً انقلبتْ الأدوار. دفعة واحدة صرتُ أنا من ينبغي عليه أن يفعل شيئًا لمكافحة الأضرار المناخية. ثم، وبعد سبعين عامًا سوف ألتقي ببنت حفيدتي. ومن جديدٍ ستحكم في القضية من جديد، فأنا من ستكون أمّ الجدّة العجوز التي قد تُطرَد إلى الغابة إذا لم يتحسّن حالُ الأرض. فإن فشلتُ في الحيلولة دون تدمير التنظيم البيئي وتقلّصتْ طبيعةُ العالم وزال سحرها، فعندئذ سوف أُدين نفسي بِنفسي.

- كفى هنّةً وأشياء لا قيمة لها، قال جوناس. لستُ أظن أنك بحاجة إلى قول المزيد.

- ولكن هناك المزيد، تصِرّ أنّا. لأنني حين أفقت من النوم كنت أنا من يحمل الخاتم السحري في إصبعي، الخاتم الذي حلمت به، إذن.

فيقاطعها:

- ما هذا الذي تقولينه؟

تشمّر أنّا الكم الأيسر من كنزتها، وتمدّ يدها وتقدّم له الياقوتة الحمراء القوية المرصَعة بالذهب في إصبعها.

– انظرْ إلى هذا، تقول. هذه خاتم كانت عُلا تحمِله في الحلم. الخاتم الذي يتيح العودة إلى نقطة البداية.

بداهةً، اختلط الأمر كلّه على جوناس.

– وفجأة صار في إصبعك وأنت تستيقظين من النوم؟ أهذا ما قلتِه الآن؟

تقول نعم بإيماءة قوية من رأسها، ويغرق جوناس في التفكير من جديد.

– أم أنكِ كنتِ تحملينه أمس مساءً عند ذهابِك إلى النوم؟

تهزّ أنّا رأسها في فخرٍ وصمت. وتروي له أنها تلقّت هذه الجوهرة العائلية في الليلة الماضية. كانت بمثابة هديةٍ بمناسبة بلوغها سنّ السادسة عشرة، ولكنْ لمّا كانت ماما مضطرّة للذهاب إلى ندوةٍ في أوسلو فقد حصلتْ عليها يومين قبل الموعدِ مع الهاتف الذكي الجديد.

– بسببِ هذا الحلم قرّرتُ أن أحتفظ بهذا الخاتم في إصبعي إلى آخر أيامي. فسوف يجعلني لا أنسى أبدًا المسؤولية التي فرضتُها على نفسي. ثم سأرتديه بالطبع أيضًا عندما أصيرُ أمّ جدّة. وإذا صرتُ أمّ جدّة لفتاةٍ فسوف أقنِع والدَها ووالدتها بأن يُسمّياها نوفا. فهكذا بالفعل تتحقّق الأحلام. ثمّ وفي يومٍ من الأيام، عندما يصير عمرُها حوالي ستة عشر عامًا يمكنني ساعتها أن أدخل غرفتَها. وسوف أحرص على ألا تلاحظ الياقوتة الغامضة. وفي هذه اللحظة فقط تُغلَق الدائرة.

- ولكنه حلمٌ تنبُّئِيٌّ. جزءٌ كبيرٌ من الطبيعة سوف يضيع بهذه الطريقة. كلّ الكرة الأرضية سوف تُمحَى، قال في انشغالٍ.

فتهزّ رأسها.

- مُنِح العالمُ فرصةً جديدة. كان هذا هو الحذق والمهارة. كان عليّ أن أستعيد العالم أجمع على الشكل الذي كان عليه عندما كانت أمّ جدّتي في السادسة عشرة. ولكنْ ليس عندي سوى هذه الفرصة. وتحطُّ عينيها على الوثائق والقصاصات الصحافية المنشورة على الطاولة، ثم تتطلع من جديد إلى جوناس وهي تقول:

- ابتداءً من الآن لا بد من العمل بجدّ!

السيارات البيضاء

ترى من خلال النافذة الضيّقة أن القرية تسبق واحدةً من السيارات البيضاء. لقد وصلت منذ وقتٍ طويل. تهبط الأدراجَ في بضع خطوات، وتُسرّب قدميها في زوجٍ من الحذاء الواطئ من دون أربطة، وتضع معطفًا فوق كتفيها وتندفعُ إلى الخارج.

في الحديقة تصادف ماما العائدة مع باقةٍ من البهشيّة. فروعُها مُنحنية تحت ثِقَل بالعنبيات الحمراء. نوفا لا تقول لها أين هي ذاهبة. فهي تعرف أن أمّها لا تحب السيارات البيضاء.

وفيما هي تركض إذ بها ترى الناسَ على الجسرِ، قادمين من الضفة الأخرى من النهر. وتساءلت كما يتساءل كثيرون منهم ما الذي سيُعرَض في ذلك اليوم. وما لبثت أن قرأت لافتةً بخطوط كبيرة زرقاء على السيارة البيضاء: ليموريات العالم الأخيرة. يا إلهي أما زال بعضٌ منها موجوداً إذن! أما زالت في العالم!؟

تعرف أن الليموريات هي من أنصاف قردة مدغشقر، وتعرف أن بعض الأفراد التي ما تزال حيّة كانت في السنوات الأخيرة موجودة في برلين، ولم يكن منها في أيّ مكان آخر. فعندما يتبخّر كلُّ أملٍ في استنساخها تحصل حدائقُ الحيوانات على الإذن في أن تُفسّح في السيارات البيضاء أفرادًا من الأنواع المهددة بالانقراض، حتى تعرِضها على السكان في كثير من البلدان. فما من ليمورٍ واحد شوهِد في البرية منذ سنوات طويلة.

تشتري تذكرة من رجل أحمر الخدين بلحيةٍ سوداء. يبيع أيضًا حلوى غزل البنات والفشار، ولكن لم تشتهِ نفسها لا هذا ولا ذاك.

كانت التذاكرُ في حجم بطاقة اللعب. على أحد الوجهين صورةُ ليمور، كُتِب تحتها ليمور كاتا. وعلى الوجه الآخر كتِب حيوانات، فقاريات، ثدييات، قرود، ليموريات. بعضُ العبارات تشير إلى أسباب انقراضِ بعض الأنواع في مدغشقر: دُمّر مَوْئِلُها بفعل الحريق، قُطِعت الأشجار لإنتاج الفحم، انخفضت الأعداد بسبب الصيد من قبل البشر. لكنّ الضربة القاضية جاءت مع التغيّرات المناخية.

كانت أوّلَ مشاهدة تدخل إلى العرض. عربةُ نقل الحيوانات تحوّلت بالكامل تقريبًا إلى قفصٍ كبير، كانت ثلاثة ليموريات تقفز فيه بين جذوع كاذبة ونباتات اصطناعية. وقد غُطّت أرضيةُ العربة بنشارة الخشب. هناك ثلاثة حيوانات، والثلاثة إناثٌ، لأنه مسجَّل على البطاقة إشارة ♀♀♀. هذه البطاقاتُ كانت قد رأت مثلها من قبل كثيراً. وهي تملك منها سلسلة كاملة. فهي ذكريات ثمينة عن الحيوانات التي أُتيح لها رؤيتُها في واقع الحياة، قبل اختفائها.

من خراطيمِها القصيرة إلى طرفِ الذيولِ كان طولُ هذه الأفراد ثلاثة أمتار تقريبًا. أكثرُ من نصفِ الطول الإجمالي لأجسامها تُمثّله هذه الأذيالُ المهيبة المزيّنة بحلقات سوداء وبيضاء. فمن وراء السياج، تقوم بقفزاتٍ عصبية، وتلاحظ بعيونها البنية الصفراء. تتساءل ما الذي تفهمه هذه الحيوانات. وتعتقد أنها تفهم أكثر مما هي قادرة على التعبير عنه. وتعرف أنه بعد سنةٍ أو سنتين، سيحقّ لها «بلينغ» على تطبيق WWF، كوداعٍ أخيرٍ لهذا النوع القادم من مدغشقر والذي كان بالأمس وفيراً غزيراً.

تُصوِّر بعضَ الأفلام عن الليموريات بآلتها. وتخرج من السيارة البيضاء وتلتقي بأحد الآباء وهو يمسك طفلين من يديهما. إنهما متشوّقان لرؤية تلك الحيوانات. لقد حصل كلّ منهما على الفشار. وبعد أن ينضمّا إلى الحيوانات الغريبة قد يحصلان أيضًا على عُودٍ من غزَل البنات. فالسياراتُ البيضاء لا تعبُر البلد في كل الأوقات.

الضفدع

عادت أنّا إلى موقع الصحيفة وقرأت بصوت عالٍ:

«أحدث التطورات: شتات أويل تنفي الدخول إلى منطقة الصراع في القرن الأفريقي. أما بالنسبة لمناطق أخرى من القاعدة الكينية، لا ترغب الشركة لأسباب تنافسية، تأكيد أو نفي التكهنات الصادرة ...»

ويعلق جوناس:

– ولكن ضخ النفط، هو ما سيفعلونه

وتكاد تتوسل إليه بنظراتها:

– في هذه اللحظة ليس هذا هو المهم.

– وما الذي يهم؟

– هل سيساعد هذا الإعلان إستر أنتونسن؟ أو بن، على أي حال؟

– عندما يريد أن يختصر الأشياء، يكتفي بقول بَنْ. سأرسل إليه رسالة قصيرة.

وتكتب كلمتين:

– هل من جديد؟

تمرّ بضعُ دقائق قبل أن يصل الردّ:

لا جديد. سأخبرك أوّلا بأول.

تتنهّد أنّا.

- إنه منهارٌ حقًا هذه المرة.

كان جوناس قد بدأ ينظر في بعض الأوراق على الطاولة. ثم يأخذ إحداها ويقرأ بصوت عال:

تتميّز الطبيعةُ البشرية بحسّ الاتجاه الأفقي طوال الوقت. لقد كنا دائمًا نُجيل أنظارَنا ترصّدًا للمخاطر ولفرائس محتملة. وعلى هذا النحو نميلُ بصورة طبيعية لحماية أنفسنا وحماية ذوينا. ولكن ليس لدينا نفس الاستعداد لحماية خلَفِنا، ولا حتى لحماية أنواع أخرى غير النوع الذي ننتمي إليه. تعزيز جيناتها من الأشياء الراسخة في طبيعتنا العميقة ككائنات حية. لكننا لا نملك أيَّ استعدادٍ لحماية هذه الجينات بعد أربعة أو ثمانية أجيال. فهذا هو الشيء الذي يجب علينا أن نتعلمه. إنه الشيء الذي يجب علينا أن نتعلمه كما تعلّمنا عن ظهر قلب قائمةَ حقوق الإنسان الكاملة.

منذ ظهورنا في أفريقيا ونحن نخوضُ معركةً خفية شرسة حتى لا يُقطَع فرعُنا من شجرة التطور. وقد نجحت المعركة ما دمنا هنا. ولكن الإنسان كنوعٍ ما انفك يزدهر حتى صرنا نحن أنفسنا نهدّد أساس الحياة برمتها. لقد نجحنا نجاحًا باهرًا حتى صرنا بهذا النجاح نهدّد أساس حياة الأنواع جميعها.

فأيُّ لاعبٍ مزهوّ في الرئيسيات، قد ينسى بسهولة، في النهاية، أنه هو الآخر، جزءٌ من الطبيعة. ولكنْ هل نحن لاعبون مزهوّون ومتباهون إلى الحد الذي يجعل اللعبَ نفسه يأتي قبل مسؤوليتنا إزاء مستقبل الكرة الأرضية؟

- سؤال وجيه، يقول جوناس.
- ماذا إذن؟

كانت أنّا تفكّر في السؤال الكبير الذي طرحته عليه على الهاتف قبل الذهاب بساعات. ما الذي يجب علينا فعله حتى ننقذ ألف نوعٍ ونوعٍ من النباتات والحيوانات؟ لكنه يوجّه إصبعه نحو الورقة التي قرأها توًا ويقول:

- هل نحن لاعبون مدمنون حتى صار اللعب عندنا يمر قبل مسؤوليتنا عن مستقبل هذا الكوكب؟ أقول فقط إنه سؤال وجيه.

توجّه إليه ابتسامة استعلاء وادعاء:

- فلهذا السبب قصصتُ هذه الورقة، بالنظر إلى ذلك تحديدًا.

لقد ثمّنتْ أنّا كثيراً اهتمامَ جوناس بكلِّ ما حمّلته على الإنترنت ونقلته عن الصحف والمجلات. ولكنّها كانت تتعجّل الوصولَ إلى النتيجة التي وصل إليها هو أثناء التزلج.

- إذن، ماذا سنفعل؟ كيف يمكننا أن نمنع انقراضَ ألفِ نوع من النباتات والحيوانات؟

يضع الورقة على الطاولة، ويكتشف قصاصة صحيفة، أخذ يقرؤها بصوتٍ عالٍ كما قرأ من قبل الإجابة الصحيحة عن سؤال أنّا:

فإذا أردنا أن نحفظ التنوع البيولوجي لهذا الكوكب، علينا أن نُحدث انقلاباً في طريقة تفكيرنا على طريق ثورة كوبرنيكوس. فمثلما من السذاجة الاعتقاد بأن جميع الأجرام السماوية تدور حول كرتنا فمن السذاجة أيضًا أن نعيش وكأنّ كل شيء لا يدور إلا من حول زماننا. فزماننا ليس أكثر مركزية من جميع الأزمنة القادمة. عصرنا بطبيعة الحال هو أهم ما في حياتنا، ولكن لا نستطيع أن نعيش كما لو كان عصرنا هو أهم ما في حياة الذين سوف يأتون من بعدنا.

يومئ جوناس لِماءة برأسه، أوّلًا لنفسه، قبل أن ينظر إلى الناحية الثانية من الطاولة ويومئ برأسه لأنّا أيضًا.

- لو رأينا إلى الأرضِ بأعيننا لكان من الغباءِ الاعتقاد أن الأرض هي مركز الكون وأن جميع الأجرام السماوية الأخرى تدور حول كوكبنا. ولكن هل من الغباء أيضًا أن نعيش كما لو كان لدينا عدّة كرات أرضية نجني منها ثمارًا كالثمار التي نقتسمها؟

بدأتْ أنّا تفقِد صبرَها. كانت ترغب في أن تعرف أيّ استنتاجٍ وصَل إليه جوناس. لكنّه سحَب ورقةً أخرى ما الذي ينبغي فعله؟ وأخذ يقرؤها.

يقول مثَلٌ قديم إنّ الضفدعَ الذي يقع في ماءٍ مغليّ سيقفِز منه فورا ويُنقذ جلده. ولكنْ إذا وُضِع الضفدع في وعاءٍ من الماء البارد يجري تسخينه تدريجيًا إلى نقطة الغليان،

فلن يشعر بالخطر ويموت مطهيًا.

ويظل جوناس يهز رأسه.

- هل جيلنا مثل هذا الضفدع؟ هل ديمقراطياتنا مثل هذه الضفادع؟ هل يمكن لهذا الكون الذي نعيش عليه أن يتحمّل كل هذا «الحمق البشري»؟

روبوتات خضراء

هي الآن في العاصمة مع الفتى العربي الذي أقام في غرفة الوسائد. لقد التقَيا مرّة أخرى إذن. لم تعُد عُلا من هذا العالم، ونوفا هي التي تحمِل الخاتم الأحمر. لقد صارت الآن راشدةً وترتدي طقمًا أسود اللونِ، مع شالٍ أحمر على الكتفين. هذا الطقم الأنيق يتكافأ مع وجودِها في العاصمة، ولونُه الأسود يتناسب، بطبيعة الحال، مع وفاة أمّ جدّتها.

صار الفتى العربي راشدًا أيضًا. فهو يرتدي جِلبابًا أبيضَ يكاد يلمس الأسفلت عندما يمشي. لكنها لا تعرف أيَّ نوع من الملابس التي يرتديها تحت ذلك الجلباب.

يتجوّلان في الشوارع الرئيسية للمدينة، ويتفقدان الروبوتات الخضراء التي ستصبح متاحةً للجمهور قريبًا. ولكنّ الشوارع ما زالت مهجورة، حتى صار وسطُ المدينة ملكًا لنُوفا وللصبي العربي، وحدهما.

هذه الروبوتات الخضراء معروضةٌ في زاوية شارعٍ من بين كل شارعين اثنين، في جميع محطات المترو، وحتى أمام بعض المباني الأثرية.

بدأت أجراسُ برج البلدية تعزف لحنًا مألوفًا. فهي الإشارة لِمَا كانا ينتظرانه. يتوجّه كلّ منهما إلى روبوتِه، هُوَ مع بطاقته الحمراء، وهيَ مع بطاقتها الزرقاء.

وقف كلٌّ في زاويته من الطريق، وبدآ ينظران كل منهما للآخر

ويتبادلان إشارات الذكاء قبل أن يمرّرا بطاقة الروبوت. تختار هي النباتات والحيوانات التي كانت تريد الرهان عليها. فكلما شكّلت رقمًا ظهَر لها شريطُ فيديو على الشاشة. ليس من الممكن الحصول على صورٍ من دون المراهنة مسبقًا على القليل من المال من أجل الحفاظِ على الجزء من الطبيعة المعروضة في الفيديو.

وفيما كانت تشاهدُ الشاشةَ وتراهن على المالِ إذ بالمدينة تمتلئ شيئًا فشيئًا. بدأ الناس يخرجون من محطات المترو، وينزلون من الحافلات، ويملؤون الشوارع بخطى متسكعة. الكثيرُ يريد أن يجرّب الروبوتات الخضراء. وسرعان ما تكتظ المدينة بالناس، وتصطف الطوابير وراء هذه المعالم الجذابة الجديدة. الناسُ يتبادلون الأحاديث النشيطة المنتعشة. يتناقشون بنزقٍ وحدّة ويُشوّرون.

في هذا الازدحام البشري لا تكاد تعثر على رفيقها العربي. لكنْ لحسنِ الحظ أنّ طولَه يزيد نصفَ رأسٍ عن طول معظم الناس. ويلتقيان ثانية، ويصفّقان بأيديهما، وترفع عينيها إليه وقد انفرجَتْ شَفَتَاها ضحكًا وسرورًا.

- فكأننا أعدنا العالم إلى الدوران من جديد، تقول.

فيجيب:

- حسبنا أن نحمِل الطبيعة البشرية على محملٍ من الجدّ.

تلعيب

- لقد حصل العالم على فرصةٍ جديدة، تُكرّر أنّا، والآن أريد أن أعرف على عجل كيف سنستفيد من هذه الفرصة؟

يرفع جوناس عينيه في النهاية عن جميع الأوراق على الطاولة. ويوجّه إليها واحدة من ابتساماته الماكرة، كالتي تحبّذها أنّا كثيراً، ويفتح سحاباً من بزّة التزلج الحمراء، ويسحب بضع ورقات مطوية ويمدّها إليها.

على رأس الصفحة الأولى تقرأ عنواناً كبيراً: كيف نتوصل إلى إنقاذ ألف نوع ونوع من النباتات والحيوانات؟ وبخطٍ أصغر قليلا: ردّاً على مشكلة أنّا.

تقلِّب الصفحات بسرعة وتعدُّ سبع صفحات مطبوعة. ثم تنظر إليه:

- ظننتك ستتأخر قليلا، ولكن كيف تسنّى لك أن تكتب كل هذا؟

- هذا سرّ. ولكن اقرئي إذن.

تبدأ أنّا في قراءة النص الذي بين يديها بصوتٍ عال. وفيما هي تقرأ يضع جوناس قطعًا من الحطب في الموقد، ويقف تقريبًا عند النافذة ذات الزجاجات الصغيرة وفي يده المنظار.

جميعُ الحيوانات والنباتات تابعةٌ لمواثلها الأحيائية،

وعندما يتعرّض جزءٌ من الطبيعية للهجوم يكون هذا الهجوم تهديدًا ضد كل الأنواع التي تزدهر في هذا النظام البيئي. فالذي يَحدُث لهذه المناطق مرتبطٌ بشكل رئيسي بالاقتصاد. فالأغنياء لا يأنفون عن أي وسيلة حتى يصيروا أكثر ثراء، مثلا، عن طريق استخراج الموارد الطبيعية، مثل النفط والفحم والمعادن في المناطق المعرضة للخطر. ولكن الفقر أيضًا يمكن أن يؤدي إلى استغلال النظم الإيكولوجية، ولكنه استغلال غير مستدام.

المشكلة أن هذه القضايا غالبًا ما تكون أوسع من أن يستوعبها الفرد. ماذا أفعل للأمازون، ماذا؟ أي مسؤولية أتحملها إزاء السافانا الأفريقية أو أسماك المحيط الأطلسي؟ ولكن الناس لا يفكرون بهذا المنطق. فالدماغ البشري ليس مبنيًا على هذا النحو.

الإنسانُ لاعبٌ كبير، أناني وفرداني. إنها نقطة البداية التي ينبغي أن تتخذها أي محاولة لإنقاذ البشرية والكوكب الذي نعيش عليه. دعني أعطيك مثالًا في البداية.

لنفرضْ أنك منشغلٌ كثيرًا بالنمر وأنك تريد أن تفعل شيئًا لإنقاذ هذه النوع من الانقراض على وجه الخصوص. يمكنكَ أن تذهب إلى المدينة وتطلب من الناس الذين تلتقي بهم ،كم هُم على استعدادٍ لأن يدفعوا من أجل تأمينِ

المناطق التي يعيش فيها النمر. قد تحصل على صدقات تجمع بها المال لصندوق حماية النمر، أو أنك ستنظم مزادًا خيريًا، أو سوقًا لبيع الخردة، أو يانصيبًا خيريًا. وما دمتَ ستتعامل مع الأشخاص فستكون الخردة أو اليانصيبُ مناسِبين جدًا.

جميعهم تقريبًا سيقدّم قطعةَ كرونة لدعم النمور، يفعلون ذلك دون تفكير، لكنّ البعض يقدّمون عشرة كرونات، أي ما يعادل ثمن قطعة شوكولاتة صغيرة أو كعكة. والبعضُ الآخر يقدّمون مائة كرونة لدعم النمور، وبعضُ الناس القلائل على استعداد لأن يتخلوا عن ألفٍ أو عشرة آلاف كرونة، على الأقل إن كان ذلك معلنًا عنه في الصحف. ولا يمكننا فضلًا عن ذلك أن نستبعد بأنه، لأسباب شخصية، كالحاجة الشديدة لجذب الانتباه، مثلا، قد يهتم مستثمرٌ كبيرٌ بالنمر ويرغب في أن يتبرّع بمليون دولار أو مليون يورو للمساهمة في الحفاظ عليه للأجيال القادمة. وما أكثر الذين ينفقون أموالاً طائلة للحصول على أعمالٍ فنية، أي على أشياء ربما تكون متعةً للعين ما دامت تدوم، ولكنها ليست حيّة، وليست مؤهلة لأن تتجدد، ولا لأن تكبر لا من حيث السعة ولا من حيث التوزيع. ثم، إنْ عاجلًا أو آجلًا، ستنقُل أرملةٌ بريطانيةٌ عجوز كلَّ ثروتها لصالح نمرٍ، ولذا لِمَ لا نصدّق هذا؟ لأن جدّ هذه الأرملة العجوز في برمنغهام كان ملازمًا في الهند، ومع الأسف ساهم في قتْل

ما لا يقل عن ثمانية نمور، وواحدةٌ من جلودِ هذه النمور معلّقةٌ الآن أمام الموقد على أرضية مكتبة الأسرة القديمة

لذا ينبغي أن نكون قادرين على إنتاج هذا النوع من الدعم في جميع أنحاء العالم، يكفي أن نودِع المالَ في حسابٍ مصرفي محدّد، اسمُه حساب النمور إذن؛ لنقلْ إن بضعة ملايين من الناس يدفعون بانتظام بعضَ المال مرّة واحدة في الشهر، على سبيل المثال - لأنه من الضروري بالطبع، إقامة نظام رعاية النمر — وفي وقتٍ وجيز نكون قد وفّرنا بضعة بلايين يورو أو يوان لبرنامج واسعٍ يسهر على موائل النمر الأحيائية. في البداية علينا أن نَستثمِر موارد هائلة لوقْف الصيد غير المشروع والصيد في أرضٍ غير المحظور، وصيد النمر نفسه وفرائسه، وفي أسوأ الأحوال لا بد من حُرّاس غابات يخَصَّصون لهذه المساعدات الأولية العاجلة. ففي السوق السوداء يباع جلدُ النمر حاليًا بنصف مليون كرونة نرويجية، وسوف تستمر الأسعار في الارتفاع مع انخفاضِ عدد الحيوانات التي تعيش في البرية. يضاف إلى كل ذلك أنه كلما فُرض مزيدٌ من العقوبات القاسية على هذا النوع من الجرائم ارتفعت الأسعار أكثر فأكثر. لذلك ينبغي تعزيزُ مستوى العقوبات. ولكنّ برنامج حُراس الغابات ليس سوى الخطوة الأولى، لأنه ينبغي أيضًا تأمينُ بعض الممرّات المتينة بين مختلف مستعمرات النمور لتجَنُّب زواج الأقارب، والتأكد من أن النمور تعثُر بسهولة على الحيوانات التي تتغذى عليها، مثل الخنازير البرية والغزلان

والظباء، على سبيل المثال، وهو ما يعني أيضًا أنه لا بدّ من الاهتمام برعاية جميع البيئة النباتية التي تنتمي إليها هذه الحيوانات العاشبة. ثم إن المحافظة على النمور تعني الحفاظ على سلسلة طويلة من الأنواع النباتية والحيوانية الأخرى. ومن وجهة النظر هذه ليس النمر سوى رمزٍ لشيء أكبر منه بكثير، فعندما يختفي النمرُ سيكون ذلك علامةً على وجود طبيعة في حالة تفكك.

- مفهوم، تقول أنّا، حسنًا. ولكنْ لِمَ النمرُ فقط، إذن؟ وماذا عن الدبّ الأبيض؟

- أعتقد أنني أجبتُ عن هذا السؤال في الجملة التالية.

وتتابع القراءة:

لماذا التركيزُ على نوعٍ بعينِه؟ ماذا عن البومة الكبيرة أو ثعلب القطب الشمالي؟ والضفادع والسمندل؟ وجميع الأنواع الأخرى المهدّدة أيضا؟ والجوابُ هو أن هذه الحيوانات يجب أن يُحسب لها حسابها أيضًا. فبالإضافة إلى برنامج النمور لا بد من ألفِ صندوقٍ مالي إضافي. وهو ما يمثل بالضبط ألف صندوق وصندوق للأنواع النباتية والحيوانية المهددة بالانقراض، وهذا رقم لا كسور فيه. ويبقى بعد ذلك الاختيار. فبدلًا من يقدّم الناس مساهمتهم لحماية النمر، فقد يختارون أن يقدّموا الدعم لصندوق آخر مختلف، مثل صندوق الأسود أو السمندل - لأسباب شخصية

للغاية، إن لم تكن أسبابًا ذهنية أو عاطفية. لذلك، فالأهمية تكمن في حرية الاختيار وكلّ الضجيج الذي يصاحب ذلك.

تشير التقاريرُ إلى أنه لمجرد تغيّر المناخ قد يصبح ما لا يقل عن مليونِ نوعٍ مهددًا. لكن هذا لا يعني أن فعالية حماية هذه الأنواع تقتضي توفير مليون صندوق. لعلنا نحتاج لرصدِ صناديق مالية خاصةٍ لأنواع من الطيور الكبيرة والثدييات. لكنّ صندوقًا واحدًا يجب أن يكون كافيًا لجميع أنواع قملة النبات المهدّدة بالانقراض، مثلا. وينبغي أن يثير هذا أهميةَ ومتعةَ العطاء لدى أولئك الذين - لأسباب شخصية، مثل تجربة فريدة من أيام مرحلةِ الطفولة، على سبيل المثال – يغذّون مشاعر جدُّ غنية تجاه قملة النبات. ولكن إذا أردنا أن ننقذ قملة النبات هذه فمن الضروري، بالطبع، إنقاذُ ما تعيش عليه هذه الحشرة، أي النباتات، ولعلنا عندئذ سننقذ الأرانب البرية والغزلان أيضًا، والوشق في نفس الوقت. لأن في الطبيعة كلُّ شيء موصولٌ بعضه بالبعض الآخر. ففي مجال التنوع البيولوجي فقدانُ النظم الإيكولوجية الطبيعية مرتبط ارتباطًا وثيقًا بفقدان الأنواع. والأنواع التي فقدت بيئتها الطبيعية والتي لا تستمر في البقاء إلا في حدائق الحيوانات لن تفصلها عن الانقراض النهائي سوى خطوات.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

- لستُ أفهم كيف تسنى لك أن تكتبَ كل هذا.

ترفع عينيها في جوناس، لكنّه يستمر في ملاحظة الهضبة من خلال منظاره القديم وهو يدير إليها ظهره. ولم يسعها أن تعرف تعابير وجهه.

- ولكن ما رأيك؟

- حسنٌ وطريف. أتطلّع إلى قراءة البقية. وظني أن هذا مفيد وممتع.

- واصل!

سؤالي هو ما هي النظم المستدامة من حيث الحفاظ على التزام الناس لفائدة التنوع البيولوجي، ولقد سبق لي أن ذكرت هنا حرية الاختيار كعامل رئيسي. دعيني أقدّم لك مثالًا آخر:

تخيلي أنه بدلًا من أن يُفرَض على الناس دفْع ثلاثين او أربعين من دخلهم، وهو ما يشبه العقوبة العامة، لأنهم لا يملكون أي تأثير مباشر على استعمال هذا المال، يختار هؤلاء الناس بندًا من بنود الدولة التي يرغبون في إيداع ضرائبهم فيها. ليس من المؤكد أن الوضعية ستؤدي إلى فوضى حقيقية، لأن البعض سيختارون دفع ضرائبهم إلى وزارة الدفاع، وآخرون إلى المدرسة، والبحث، وحماية البيئة، والمساعدة الإنسانية، أو للنقل العام. فيما سيميل آخرون إلى المتاحف، ودور الحضانة، والمستشفيات، والأوبرا، أو

التكفل بالأشخاص المسنّين. ولكن النتيجة النهائية ربما ستكون تقريبًا كما هي عليه الآن. مع فارق صغير وهو أن دافعي الضرائب سيكونون راضين كل الرضا. فهذا النظام يعتني بالمتعة التي يوفرها للإنسان كلُّ ما كان له طعمُ التأثير الشخصي، والتنافس، ونكهة اللعب.

لننتقلْ الآن إلى حماية البيئة. فلو أدخل السياسيون فجأةً ضريبةً بيئية مكرسة، لمَا ادّخر الكثيرُ جهدًا في التنديد بضريبةٍ إضافية جديدة. لأنه ما المقصود في نظرهم بالبيئة، وأيّ سياسة بيئية أفضل، وأكثر جوهرية؟ فلو، بدلًا من ذلك، أدخلنا ضريبةً أكثر نوعيةً للحفاظ على التنوع البيولوجي، لاستجابَ عددٌ أكبر من الناس لهذه الضريبة، لكنّ البعض سيستمرّون في الاحتجاج، لأنه ما هي الأنواع التي من المهمّ حمايتُها؟ من ناحيتي لا أتحمّل لا الذئاب ولا اللّقام، قد يقول مربي أغنام أو مربي رنّة. ولا شك أنّ هناك أيضًا رائدًا من رواد أدغالِ الأسفلت سيعترِض أيضًا لو تعلّق الأمرُ بالحفاظ على شيء لا فرق عنده بينه وبين سنقر أو بومة ثلجية، وهي الأنواع التي لن يقترب منها أبدًا على أيّ حال. ولكنْ إذا كان كلُّ من يدفع الضرائب سيضع علامة على من واحد إلى ثمانية أنواع، فعندئذ سيَدخلُ في دفْع ضريبتِه البيئية عملُ تقييمٍ شخصي وعملٌ طوعي. وفوق ذلك سنحصل على موضوعِ نقاش، موضوع يتيح لنا لعِبَ لعبة أصحاب الشأن.

- لكنك إذن تريد أن يكون لديك ألف صندوق وصندوق مختلف يديرها سكان العالم؟ فذات يومٍ قد نودع كرونة أم اثنتين في صندوق الدببة، وفي يوم آخر قد نميلُ ميلًا خاصًا للنسر الذهبي، والبومة الكبرى، أو الباز الشمالي. ومرة واحدة في السنة على الأقل، في أعياد الميلاد، على سبيل المثال، سنسند كرونة أو اثنتين لسمندلٍ مهدّد أو ضفدعة؟ تسأل أنا.

- أو العكس، السمندل والضفدع مرة واحدة في الأسبوع، والنسر الذهبي والباز الشمالي في نهاية العام. لأنه من يأتي أوّلا، الباز أم الضفدع؟

- الضفدع، تجيب. فمن الضروري أن يحصل الباز على لقمة عيشه.

- وقبل الضفدع؟

- الحشرات ومفصليات أخرى.. والديدان. ذات مرة رأيت ضفدعة وهي تبتلع دودة أرض بكاملها.

- وقبل ذلك؟

- النباتات الفطر ... والكائنات الحية وحيدة الخلية.

- حسنًا.

- ولكن جوناس، لا أقول موافقة. من المستحيل أنك كتبت هذا اليوم. أنا أرفض أن أصدق ذلك. وأقول لك فوراً. أنا لا أصدقك!

- ألا يمكن فقط أن تقرئي؟

وتغوص مرة أخرى في النص:

ولكني أسمعُ اعتراضًا. لأنه هل يهتم الناسُ بالطبيعة

فقط؟ ألم نحوّل الأرض إلى حديقة تسلية كبيرة ووحيدة؟ لعلّ هنالك الكثير من عوامل الجذب الممتعة التي يمكن أن نختار من بينها ما نشاء، حتى نتمكن من الالتفاف حول مثل هذه المهام الكبيرة المشتركة بين البشرية. إننا نتقاسم الكوكب، ولكنّ الجميع لا يسعهم التفكير بحس الكوكب. هناك الكثير من الحرية في العالم، والكثير من حقوق الفرد، والكثير من القوة الشرائية المتاحة للأغنياء، والكثير من براميل النفط ومحركات الجيت المتاحة للأغنياء، والقليل جدًا من المسؤولية إزاء الكوكب الذي نعيش عليه وإزاء التوزيع العادل لموارد هذه الكرة الأرضية. الناسُ يملكون الآلاف من جوانب الحياة الأخرى التي ينشغلون بها، قبل أن يبدأوا في التفكير في شيءٍ مميزٍ للطبيعة، وفي خير هذا الكوكب.

حسبنا أن نقرأ كلَّ ما تكتبه الصحافة عن الرياضة والقمار، والمطاعم، والخمور، والسيارات والسفن السياحية، والهواتف المحمولة، وأجهزة الكمبيوتر، والحدائق، والتزيين، والطبخ، وممارسة التمارين الرياضية، والأدوية والأمراض المرتبطة بنمط الحياة، والصحة والمخدرات والكحول، والجنس وحياة العزوبية ناهيك عن القيل والقال والفضائح. ففي كل يوم يمرّ هنالك شهير من مشاهير التلفزيون أو نجمة سينمائية تتزوج أو تطلق، وهناك من يدمِن المخدرات أو يُشفَى من إدمانه. فهذه هي الأشياء التي يتحدث عنها الناس. فهنا تحديدًا نجد الناس. إنه ما

يرغبون في رؤيته. لقد ابتعدنا كثيراً عن ذات الطبيعة التي نعيش فيها والتي نحن في النهاية، تابعون لها كليا. فلا غرو أن يذكر معظم الناس أسماء لاعبي كرة القدم ونجوم السينما أكثر بكثير مما يذكرون طيراً من الطيور أو نوعًا من أنواعها.

ما الذي تريد الوصول إليه إذن؟ أعتقدُ أنه مع مثل هذا الضغط البشري، قد ننجح في إنقاذ ما لا يقل عن ألف نوع من الأنواع النباتية والحيوانية المهددة بالانقراض. مع مثل هذه الطبيعة البشرية، أعني. علينا ألا ننسى أن نأخذ هذه الطبيعة البشرية بعين الاعتبار. علينا فقط أن نزيد قليلًا من الاهتمام الذي يكرسه الناس لنتائج المباريات الرياضية، وللقيل والقال حول المشاهير وحول ما يسمى بـ «الفنون والثقافة» لننقله إلى العالم نفسه، وإلى الطبيعة الحية، ولكل طيف الأنواع النباتية والحيوانية التي تتعرّض الآن للتفكك. ويمكننا أن نثرثر كما كنا من قبل، ولكن مع إضافة بضع كلماتٍ حول أكتع القطب الشمالي وبطّة الصخور والكركدنيّات - وليس فقط عن أرسنال وتوتنهام. كما يمكننا أن نُنظم ألعابًا مالية مُحفّزة حول الأنواع المهدّدة بالانقراض، ولا ينبغي أن يحول دون ذلك أيٌّ شيء. هل تريد حصة من أوراق يانصيب بطّة الصخر، سيجري السحب يوم ٣١ تموز؟ لا، طيب، ولكن معي أيضًا أوراق للكشط حول البومة الثلجية. ثم إذا كنت لا تهتم كثيراً بالطيور، عندي أوراق عن الوشق، فغدًا بالفعل يجري

السحب السنوي ليانصيب الوشق، وسوف تكون قوائم النتائج جاهزة على شبكة الإنترنت ابتداء من مساء غد. أسمع من الآن غوغاء الجمهور. أسمع شيئًا من ذلك القيل والقال اللذيذ، وهو أخيراً يقف إلى جانب الطبيعة: لا، فاليوم أنا مَن سيتلذّذ، لقد حصلتُ على بضعِ كرونات عن السلاحف البحرية

تظل فاغرة الفاه. لكنها لا ترى أمامها سوى ظهْرٍ أُدير لها.

- جوناس جوناس ...!

فيلتفت.

- أنت مجنون! قالت. وإنه لأمرٌ رباني أيضًا. لكنْ، جوناس، أنت بحاجة لاستشارة طبيب نفساني. أو ربما سيتعين علينا القيام برحلة الى أوسلو. أنت في حاجة إلى محادثة جيّدة مع بنيامين. المهم أن تعود إستر إليه قريبًا من أفريقيا!

يبتسم جوناس ملء شدقيه، وتستمر أنّا في القراءة:

هناك شرطٌ ضروري لكل ذلك، وهو وضْع كاتالوج مع رقمِ حساب لكل الأنواع النباتية والحيوانية المهددة بالانقراض، جردٌ يمكن الوصول إليه بسهولة على شبكة الإنترنت. يمكننا تنظيمُ بعض اليانصيب العالمية حول مختلف عائلات الأنواع المهددة بالانقراض، مثلا كل القطط، والبومات والدببة في العالم، أو ألعاب مالية أكبرُ مع سحبٍ في كل سنتين، بحسب أنظمة الحيوانات

كلها، كنظام الحيوانات المفترسة، أو مزدوجات الأصابع. وبالطبع سيجري سحبُ أكبر اليانصيبات الوطنية على شاشة التلفزيون، وستصطفّ فنّانات وفنّانو البلد لإظهار فساتينهن وبدلاتهم الجديدة. أمّا سحب أكبر الألعاب في العالم فسيكون موضوع برامج تلفزيونية كبيرة تُبثّ إلى الناس في جميع أنحاء العالم. وفي غضون ذلك يمكن لأيّ شخص أن يراهن في أي وقتٍ على نطاق أصغر، مثلًا على عددٍ من الحيوانات التي تظل أكثر الأنواع المعرضة بشكل خاص للانقراض، لأنه يجب أن نحسب باستمرار عددَ الأفراد الحيوانية التي يستمر بقاؤها في الطبيعة.

لكني ما زلتُ أسائل نفسي: هل لدينا سببٌ وجيه يجعلنا نصدّق أن سكان العالم سيدعمون مثل هذا الهرج والمرج لفائدة الأنواع النباتية والحيوانية في العالم؟ وعلى هذا السؤال أجيبُ وأقول بأنه عندما تمرّ جلسات المآدب كاملة والسهرات في المدينة كاملة، في الحديث عن احتمالِ أن يصل أحد عشر شخصًا في خمس وأربعين دقيقة مرّتين، إلى إسكان الكرة مرّاتٍ عديدة في شباك الخصم أم لا، فليس مستبعدًا أن يكون أشخاص في بعض الظروف يتابعون باهتمام تطور عدد الأسود التي ما زالت تعيش في العالم، أو عدد أفراد الشامبانزي، لا سيما إن وُجدت بضع كرونات يمكن ربحُها في العملية، وربما أيضًا بعض الاستحسان حول طاولة القهوة وقليل من التمجيد والتكريم. تصوّرْ كل ما

يمكن للناس أن يتعلّموه من الطبيعة من خلال العناية التي يثيرها هؤلاء اللاعبون في داخل مجتمعاتهم المحلية والمجتمع بصورة عامة — وفي القرية العالمية أيضًا. بعضُ الأشخاص سيحصلون على مكاسب جمة، وفي زمنٍ قصير سيصبح بعضُهم مشاهيرَ داخل أوطانهم: هذا الشخص مدهشٌ حقًا. فهذه المرّة أيضًا هو الذي كان الأفضلَ في كل الشبكات، اللافقاريات، المفصليات والفقاريات. والآن فاز بالجائزة الكبرى، وقد اشترى سيارة كهربائية وبيتًا بطابقين في حي هومانسبيان في أوسلو. ولِمَ لا؟ أصحابُ ملايين الحيوانات ليسوا كأصحاب الملايين الآخرين.

– حسنًا جوناس، هنا أراك قد ذهبتَ أبعدَ مما يحق. الأمرُ أشبه بما يُكتب في مدونات الإنترنت أو جريدة المدرسة

– لم تقرئي كل شيء.

– ثم لا يمكن أن يكون نصًا كتبتَه اليوم فقط. ألم تكتفِ باستعمال طريقة «نسخ ولصْق» على الإنترنت؟

يبتسم جوناس. ولا يتظاهر بالإجابة، وتواصل أنّا قراءتها:

قد يقول قائل إني أودُّ التحالفَ مع الشيطان. ولكني أريد ببساطة أن أتحالف مع الطبيعة البشرية. أعتقد أن القليل من كل الثرثرة التي تجري من أجل إيجاد محتوى جديد، من حيث الشكل، قد تظل تراوح مكانها. لا حاجة لتضخيم المسألة فيما يتعلق بالبشر البالغين الذين يُذكّرون أحيانًا بالقرد أو بالطفل الصغير. فالحقيقة أننا ننحدر من

هذا ومن ذاك. وعلينا بعد ذلك الحفاظ على المنافسة، لأن الرجال يحبّون المنافسة:

كم بقي من نمورٍ في العالم؟ وأين تعيش؟ كنْ دقيقًا جدًا، وإلا فسوف يتم إقصاؤك على الفور ... حسنًا، حسنًا. وما الذي ينبغي فعله حتى تنجو هذه الأعداد بجلدها؟ ركّزْ جيدًا، لأنك لن تحظى إلا بهذه الفرصة الوحيدة.... ما الذي يمكننا فعله بالضبط لإنقاذ المناطق التي تعيش فيها النمور؟ ونحن هنا نتحدث عن نمور البنغال ونمور سيبيريا، وما الذي لا يسعنا فعله في أي حال من الأحوال...؟ بعد ذلك يتعين عليك إعادة إشكالية النمر إلى سياق عالمي. أنتظرُ منك تقريرًا مختصرًا عن وضعية جميع القطط في العالم، عائلة السنوريات. وأخيرًا، أن توضح كل ما حدث على أرض الواقع خلال الأشهر الستة الماضية. الفرق هنا عليها أن تقدّم إجابات دقيقة كل الدقة...

أليس من المريح للنفس أن تعج أقسام الهذر واللغط في الصحف يومًا بعناوين جديدة؟ *هذا المصمم الداخلي يدعم ١١٤ من الفقاريات المهددة* *مدرّس لغة إنجليزية يعشق الضفادع والسلمندر.. وهذا المدرّس يهب كل ثروته لصندوق مزدوجات الأصابع... ومزارع من فنسترا يبيع مزرعته المستأجرة ويهدي كل مالها إلى الأسود* *هذا الأب الذي يتلقى تقاعدًا بسيطًا مستمر في مساهمته الأسبوعية لفائدة الثعالب القطبية* *من فعل أكثر لأسراب الطيور خلال العام الماضي؟ ترقّب يقطع الأنفاس قبل البث التلفزيوني للطير الذهبي يوم الأحد...*

ثم يجب أن يحصل الناسُ على شيء. يجب أن يكون لديهم أشياء مرئية ملموسة يعلّقونها على الجدران، أو يضعونها على ظهر المواقد. فالذي أعطى في المجموع ألف كرونة لمستعمرةِ الرنة يتلقّى شريطًا أو حزامًا بلونٍ معيّن، ومَن تجاوز خمسة آلاف كرونة يحصل على الشريط ذاته وعلى الحزام بلونٍ مختلف. وهكذا يمكن أن تستمر الثرثرة والثناء، وهو أمرٌ طيب، إنها الطبيعة البشرية الصحية جدًا والطبيعة الحرة. أو قد يمكث الناسُ في منازلهم ويُغوغِل بعضُهم للبعض الآخر: هل كنتَ تعرف أنه يحمل حزام الرنة الأسود؟ هذا يمكن أن يكون موضوع حديثٍ أثناء تناولِ غداء عيد الميلاد. هذا أمرٌ جيد، وهذا عظيم. أكاد أجدني أحب البشر من جديد!

- لكنْ ما كنتَ لتستطيع أن تكتبَ كل هذا قبل أن ترتدي زلاجاتك. وظني أنك وصلتَ متأخرًا بعشر أو خمس عشرة دقيقة عمّا توقّعتُه منك. وليس عشر ساعات! ثمّ إني لأرى من تجاوز الحدود، بعد أن عمِلت بضعة أسابيع لإنشاء جمعية للبيئة، أن لا تكتب أيّ شيء عن التغيرات المناخية.

- إقرئي إذن، أنّا!

ولكن ما زلتُ أسمع اعتراضًا. لأنه ما الذي نفعله بالتغيرات المناخية؟ أليس ارتفاع درجة حرارة الأرض أكبرَ تهديد فردي ضد هذا المليون كله من الأنواع النباتية

والحيوانية؟ هذا صحيح تمامًا، وعلينا أن نقول إذن إن خمسة وثلاثين في المئة من جميع الأموال التي تودع في الألف صندوق وصندوق تذهب لتمويل طاقة الرياح، وإلى الطاقة الشمسية، والبحث عن مصادر بديلة للطاقة، مثل طاقة الانصهار، ولأعمال الحد من انبعاثات الغازات المسبّبة للاحتباس الحراري بشكل عام – وكأن الأمر نوع من ضريبة القيمة المضافة للحصول على الحق في المشاركة في حفل. قد يكون الأمر بهذه السهولة. أما الحدُّ من انبعاثات غازات الاحتباس الحراري فلم يعد مشكلة، إنه الآن جزءٌ من الرياضة الشعبية الجديدة.

هدفي هو أن أظهِر أنه مع مرور الوقت لا جدوى من اللعب على سوء ضمير كل شخص، لأنه، - أو لأنها - يحمِل جزءًا من مليار من المسؤولية عن الأرض ومستقبلها. ماذا يمكننا أن نقوله في هذا الشأن؟ كيف يمكن أن نعيش مع جزء من المليار من المسؤولية إزاء كوكب بأكمله؟ فإذا كنا نريد أن نحصل على الطبيعة البشرية في هذا المشروع، فلا ينبغي أن تختار المشي في الخطوة. فكّرْ في كلِّ مصلحة، وكلّ طعْم المجموعة التي ارتبطت بالفعل بالنباتات والحيوانات، وأعني المصلحة تجاه كل شيء، من بساتين السحلبية إلى الباراكيت، مرورًا بالخنافس والفراشات والشرشور والببغاوات، والورود، والكشمشة، والغار الوردي،

والكلاب والقطط والثعابين، والإيغوانات والجرذان والفئران. ولكن عندما نختار أن ندفع بعض المال من الصندوق للورود أو إلى صندوق الببغاوات فإننا بذلك نسهم في الوقت نفسه في بذل جهدٍ لإبطاء ظاهرة الاحتباس الحراري على الأرض.

وأخيراً، أود أن أتقدّم بالشكر الشخصي لأنّا نيرود التي منحتني الإلهامَ لقضاء أربع عشرة دقيقة أمام جهاز الكمبيوتر الخاص بي، لإجراء بعض التعديلات على العرض الخاص بالتنوع البيولوجي الذي قدّمتُه في الصفّ يوم الخميس. وكان عنوان العرض «كيف يمكننا إنشاء التزامٍ شعبي إزاء التنوع البيولوجي؟

جوناس هيملين في لُو، يوم ١١/١٢/٢٠١٢

ترفع أنّا عينيها.

- إني أفهم... إنه عرضٌ جميل، بل جيّدٌ جدًا. ولكنْ من سيضع هذا على الطريق؟

لا يجيب.

- ماذا قالت الأستاذة؟ هل أعطتكَ علامة؟

- قالت إنّ الموضوع مُسَلٍّ، وإنه مكتوب بطريقة جيدة، وإن العرض حيٌّ. وقد أخذتُ خمسة مِن ستة، وقد شرحتْ لي أن السبب الوحيد الذي جعلني لا أحصل على ستة هذه المرّة أن طريقة تنفيذ

مشروعٍ كهذا ما تزال غامضة. لقد اعتبرَت هذه الأفكار أفكاراً منعشة، ولكنها غير «راسخة».

- وكان شيءٌ من هذا القبيل قد خطر لي أنا أيضًا.

يظلان برهة من دون كلام. وفجأة يحملق فيها:

- ولكن انتظري قليلا... انسَيْ هذه الكاتالوجات، وهذه الحسابات، وكل هذا السيرك من نقل الأموال. ظني أني أستشعر بعض الآليات!

- تقول آليات، جوناس؟ ما الذي تقصده؟

- أقصد اللعبة نفسها.

- أصحيح؟

- أتخيلُ الروبوتات الخضراء التي توضع في أي مكان يوجد به البشر، أي في جميع أنحاء العالم، في المطارات، وعلى نواصي الشوارع ومحطات المترو. بعد ذلك يكفي الشخص أن يُدخل بطاقته في الروبوت. تكتب رمز النوع الذي ترغب في مساندته - عدد يتراوح بين ١٠٠٠ و ١٠٠١ - وبعد ذلك تظهر على شاشة صغيرة فيديوهاتٌ جميلة لهذا النوع. ويصبح هذا بمثابة تلفزيون مدفوع الأجر. لا يمكنك أن تعيش الطبيعة إلا من تلك التي تساهم في حمايتها، وفي نفس الوقت يمكنك المشاركةُ في عددٍ لا حصر له من ألعاب كسبِ المال. ومع بضْعة مليارات من البشر وبضْعة ملايين من النباتات والحيوانات لن يكون من المستحيل إدخالُ بعضٍ من اللعبِ في جميع المملكة الحيوانية والنباتية. وهذا ما صار يسميه البعض بِ التلعيب

تُصدر أنّا حسرةً ساخطة.

- لكنكَ حدثتني في هذا من قبل.

- لا، لا، لم أفكر فيه إلا هذه اللحظة.

فتتنهّد مرة أخرى.

- إذن هو مجرد شيءٍ حلمتُ أنا به.

صار نظرُها يسرح بعيدًا. وتظل لثوانٍ عديدة تنظر فقط أمامها من خلاله.

- أنّا؟ أنّا!

وتركّز مرّة أخرى نظرَها في عينَي جوناس:

- لا حيلة لي في الأمر، جوناس.

منازل عطلة نهاية الأسبوع الساحرة

تطلي أظفارها باللون الأحمر وتخرج للتجول في غابة أشجار البتولا. لكنّ طلاءَ الأظفار بالأحمر قبل انطلاقها إلى الغابة يبدو لها ضربًا من الجنون والشطط. لم تصادف في الغابة أحدًا قط. ثم من يدري، فقد تضطر إلى استخدام يديها لأي سبب.

تصعد لغاية الهضبة وتقترب من شاليه المرعى الجبلي القديم. في الأيام الخوالي كانت الماعز والأغنام تقيم فيه من عيد سانت جان إلى أيلول. وكانت بعض الخنازير تقيم في الجزء السفلي من الإسطبل، والدجاجات تخبّ في الفناء. والخِراف ترعى نفسَها بنفسها أثناء الصيف، حيث الغابة التي تتجوّل فيها الآن.

مزرعة المراعى الجبلي ليست مزرعة عفا عليها الزمن فقط. لقد غزتها النباتات. لكنْ وراء الأسوار الحجرية التي تكسوها الخضرة، لم تختف شاليهات المرعى الجبلي، إذ ظلت شامخة مثل عوالم صغيرة ساحرة قائمة بذاتها. بعض المباني ما زالت تحظى بالعناية، وتُستعمَل منازل ساحرة في عطل نهايات الأسبوع، وتسعى بعض العائلات للحيلولة دون زحف الأشجار والشجيرات إلى داخل أفنية تلك البيوت. تدبر برفقٍ بين الجذوع البيضاء، وتقفز من فوق جدولٍ هامسٍ، وتستمتع بجميع الأسرار التي قد لا يعرفها أحد غيرها. تسمع هديراً في الأدغال وترى يحموراً. لعله رشأ. في رمشِ العين يمكث

ساكنًا يتأملها بلا حراك. وفي اللحظة التالية يختفي عن أنظارها.

تصعد التلةَ الأخيرة التي تؤدي إلى الكوخ القديم. لقد خطّطت لدخولِه، ولكنْ ما إن صارت بالقرب منه حتى لوّح لها من خلال النوافذ الصغيرة أن بداخله أحداً. وفي الحين تتأكد أن الذي رأته أمُّ جدّتها أنا. إنها أنّا بلا شك. لقد رأت لها أطنانًا من الصور وأشرطة الفيديو عندما كانت في سن المراهقة. وتلمح في داخل الكوخ أيضًا فتًى، مراهقًا أيضًا.

وتمرّ مسرعةً وهي تمشي على رؤوس الأصابع. ولا تريد أن تزعج مَن كانوا شبابًا في ذلك الوقت.

خاتم علاء الدين

يمسك جوناس بيدها على الطاولة ويبدأ في اللعب بخاتمها الأحمر.

- أخبريني عن هذا الخاتم.

- في حلمي؟ أم في حكاية علاء الدين؟

- أعني في الحقيقة.

فتروي له أنّ الجوهرةَ كانت في الأسرة لأكثرَ من قرنٍ من الزمن. وكانت أمُّ جدتها تُدعَى زيغريد، وكانت أوّل من يرث خاتم العمّة العجوز سونّيفا، شقيقتها الكبرى التي هاجرت إلى الولايات المتحدة وخطَبها تاجرُ سجاد فارسي. كانت قصةً حزينة، حزينة جدًا، لأنه بعد مرور أسابيع قليلة على خطبتهما، وبعد أن حصلت سونيفا على هذا الخاتم الجميل عربونًا لخطبتهما، سقط إسماعيل إبراهيمي، وهو اسمُ الرجل الفارسي، من قاربِ مجداف في نهر الميسيسيبي، ومنذ ذلك الوقت لا حسّ منه ولا خبر. سقط في النهر، نعم، أو دُفع دفعًا من على ظهر القارب، كما أكّد البعض أيضًا، لأن تاجر السجاد كان يحمِل على متن القارب ما يكفي لملءِ بازارٍ من السجاد الفارسي، أو كومة جميلة من قماش الكريب الرقيق الجعد، على الأقل، وجميعها اختفت قبل التمكن من الإبلاغ عن اختفاء التاجر.

على أيّ حالٍ سئِمت العمّةُ سونّيفا كثيرًا من أمريكا وكلّ العيش فيها، وبالكاد بعد عامٍ عادت إلى البلاد. ولم تجلب معها سوى الخاتم العجيب. ثم حزنها، بطبيعة الحال، هذا الحزن الذي لا نهاية له، لأنّ

العمّة سونّيفا كانت تحبّ الفارسي الأنيق حبًّا أعمى، حتى صار هذا الحبُّ موضع شكٍ بعد أن صار وشيكًا، وكثُر حوله الغمزُ والهمز وقيل إن العلاقة «علاقة مشبوهة». ولكنّ الخاتم الأحمر كان حقيقيا. وكان غامضاً جدًا ومنقطع النظير بعد أن عُرِف أنها آتٍ من علاء الدين، الذي تتحدث عنه قصص ألف ليلة وليلة. هذا كل ما كانت تدّعيه سونّيفا. ولم تتخلّ عن الفكرة حتى ماتت بسُلٍّ حادّ سريع، وهي غير متزوجة وليس لديها أطفال كما كانت عند عودتها من أمريكا. فحتى النهاية ظل الأسفُ ينهشها نهشًا لأنها لم تنجب أطفالًا في حياتها. ولهذا السبب كان الحسّ الأسري عندها أقوى من أيّ شخص آخر في الأسرة. وكثيراً ما كانت تردّد أنها تأمل من كل قلبها أن تعني شيئًا لأولئك الذين يعيشون في العالم بعد رحيلها. وكان من المظاهر الواضحة لهذه الرغبة ذلك الوقت الذي كرّسته للنسيج ولصناعة الدانتيل والتطريز لكل أبناء وبنات الإخوة والأخوات، وللجدة من ناحية الأم، أنّا التي ورثت الوسائد المزينة برسوم الأساطير. ثم هناك الخاتم بالطبع. أي الشيء الثمين نفسه، الذي بقي من العمة سونّيفا، والذي ظلّ على حاله ولم ينكسر أبدًا. والذي ما انفك ينتقل من إصبعٍ إلى إصبع على مرّ أجيال كاملة، وصار اليوم إلى جيل أنّا.

يرفع جوناس يدَها حتى يتفحّص عن قربٍ الياقوتة الحمراء.

- جمالُها خرافي حقًا... وعندي إحساسٌ أنها قديمة جدًا. من زمن آخر، قال.

ويرفع عينيه إليها:

- لكن لا أظنك تعتقدين أنها تعود لزمن علاء الدين ثم أليس علاءُ الدينُ هذا هو صاحب المصباح السحري؟

- لم تكن سونّيفا إلا في الثامنة والثلاثين من عمرها عندما توفيت بمرض السل، وكان هذا الخاتم هو الدليل المرئي الوحيد على أن حبها الكبير كان حقيقيًا، وبطبيعة الحال، الدليل على الذي أحبها فوق كل شيء على هذه الأرض. لا أحد يهدي خاتما فريدا مثل هذه لأنثى عابرة. هذا أمرٌ لا أصدقه لحظة واحدة. هذا الخاتم ربما كان خاتم الخطوبة، حتى وإن قال لها إسماعيل إن عمر الخاتم أكثر من ألف سنة.

ينظر إلى الياقوتة مرّة أخرى

- ولكنْ، لعله قد بالغ في ذلك قليلا. ولعل هذه العمّة كانت ساذجةً أيضًا؟

تهزّ أنّا رأسَها في ثقة كاملة:

- قبل خمسين عامًا فحَص الخاتم جواهريٌّ نرويجي، متخصّص في المجوهرات الشرقية، وكان استنتاجه أنّ عمره لا يقل عن ثمانية قرون. وقال إن هذه الخاتم جوهرةٌ عريقة، وأشار إلى أنه ربما كان يومًا مِلكًا للمتحف الوطني الإيراني في طهران. بل وقد أكد فوق ذلك أن الياقوتة نفسها - بلون الحمام الأحمر - ربما يعود أصلُها لبورما.

- لبورما وليس لأسطورة.

تكتفي بسماع أقواله، وقد ملأتها الغبطة وهي ترى جوناس يستسلم، منبهرًا بالقصة.

- ينحدر إسماعيل من عائلة عُرفت حافلةً بالتقاليد والقصص القديمة. وقبل ثماني مائة عام عاش في بلاد الفرس حقًا علاءُ الدين التاريخي. ويعني هذا الاسم «سموّ الدين»، وكان قد استحق هذا الاسم، كما يقال، لأنه كان يؤدي الصلاة اليومية، ويستمسك بحبل

الإيمان بالله العلي القدير، وقد قاوم ساحرًا شريرًا كان يسعى لقتله. وكل القصة كانت على صلةٍ بطلب علاء الدين الزواج من فتاة جميلة. ثم تمكّن علاءُ الدين من أن ينشل خاتمًا سحريًا من ذلك الساحر. وبعد أن لبسه في إصبعِه صار معصومًا من جميع أشكال السحر الأسود الذي حاول الساحرُ الشرير أن يُسلطه عليه.

يسعل جوناس سعالًا خفيفًا:

- وهل علاء الدين هذا هو الشخص الذي تحدثنا عنه الأسطورة؟

- ليس بالضرورة. لقد عاش شخصٌ يُدعَى بيرْ جينْت ذات يومٍ في غوت برانسال. ولكنْ هل هو بيرْ الذي يحدّثنا عنه هنري إبسين في مسرحيته؟ نادرًا! وإذا كنتُ أنا اليوم هنا مع خاتم يأتي من علاء الدين الحقيقي الذي عاش في بلاد الفرس في القرن الثالث عشر، فإنه يكفيني هذا. ثم يمكننا أيضًا أن نلاحظ شيئًا آخر. فهو شيءٌ تذكّر به أمي دائمًا. أن أكون عاقلا.

- هلا قلتِ لي هذا الشيء. فأنا أيضًا أريد أن أكون عاقلا.

تحدق في عينيه.

- ليس من غير المعقول أن يأتي الخاتم من شخصٍ يُدعَى علاء الدين. ولكن، بالطبع، يمكن أن نتصور أن يكون علاء الدين قد سُمّي بهذا الاسم نسبة إلى الشخص الذي ذكرته الأسطورة. لأنه ما من أحدٍ يعرف متى ولدت هذه الأسطورة.

- موافق، يقول جوناس. ظني أني متّفق مع والدتك. فعندما كنا في قاعة الانتظار هذه تحدّثنا في أمور بعينها وفي أمور كثيرة أخرى. فلا شك أنها هي التي تمثّل العقل في العائلة.

- بالتأكيد، تجيب أنّا.

ثم تردّد بصوت قوي وثابت، ومهدد تقريبًا:

- بالتأكيد! ولكن سونّيفا كان لديها شيءٌ آخر عندما عادت من أمريكا، وقد تحدّثت عن هذا الخاتم، أتفهمني، شيءٌ أيقنتْ به يقينًا أعمى حتى يوم وفاتها. وحتى نفهمها يجب أن نلقي نظرة على ألف ليلة وليلة.

ينظر جوناس في ساعته، وقد أدركت السبب. بعد ساعتين سيخيم الظلام. لكنها واصلت:

- في مناسبتين اثنتين استطاع علاء الدين أن يفلت بجلده بفضل هذا الخاتم. المرة الأولى عندما كان سجينًا في إحدى المغارات فجمع يديه ليصلي للخالق العلي العظيم، فظهر جني الخاتم لأوّل مرة وحرّر علاء الدين من أسره. والثانية عندما نُقل قصرُه بأكمله، مع زوجته وعبيده من الصين إلى أفريقيا. لقد وقف علاء الدين على حافة النهر وجمع يديه في صلاة أخيرة قبل أن يغرق في حزنه العميق. ولكنْ هنا أيضًا لمس خاتمه فظهر الجنُّ من الجوهرة مرّة أخرى، وهو على استعداد ليلبي أمنية علاء الدين في العثور على أميرته الغالية. لم يكن جني الخاتم يملك القدرة على فكّ كل ما حدث وإعادة القصر من أفريقيا إلى الصين مع الأميرة والخدم، فجني المصباح وحده هو القادر على ذلك، والحال أن المصباح كان في أفريقيا، لكن جني الخاتم كان يملك القدرة على تلبية أمنية علاء الدين في أن ينتقل هو نفسه إلى القصر.

- نعم، أذكر هذا.

- العمّة سونّيفا كانت دائمًا تقول إن هذا الخاتم مُنح ذات يوم، أثناء إنجازه إذن، القدرة على تلبية ثلاث أمنيات، وأنه لم تُستعمل

منها سوى إمكانيتين فقط. وتوفيت وهي على يقين أنه في حالِ حدوث أيّ مشكلة خطيرة يستطيع الشخص الذي يحمل هذا الخاتم أن يحقق أي أمنية من أمنياته تقريبا، ولكن ذلك لا يتحقق إلا مرة واحدة فقط. شخصيًا لم تنجح سونّيفا ولا مرة في إيجاد الرغبة الكبرى التي تحثها على استعمال آخر فرصة يمنحها الخاتم، حتى لو رأت الموت وجهًا لوجه وكان بإمكانها أن تستعمل الخاتم وتطلب الشفاء. كانت تقدر أنه من الأفضل أن تؤجل الفرصة لغاية اليوم الذي تظهر فيه رغبة قوية جدا، ومن القوة التي تجعل الخاتم قادرًا حقًا على مساعدة العالم.

يغادر جوناس الطاولة ويشرع في المشي ذهابًا وإيابًا فوق ألواح الأرضية.

وأخيرًا يوجّه سبّابته إلى أنّا وهو يقول:

– وهذه الإمكانية، هل أنت من ورثها؟

تحدق فيه وتومئ بنعم. ثم تصرّح بصوت متحفظٍ لا يخلو من شعور بالانتصار:

– ولكني استعملتها، يا عزيزي جوناس. ولم يبقَ منها شيء. لأني الآن استفيد من آخر فرصة. حسنًا، ليس الآن، في الواقع، ولكن بعد سبعين عامًا، عندما كان كلّ شيء في أسوأ أحواله على كوكبنا، وحين كانت الحياة تكاد تنعدم تمامًا في الغابات العذراء التقليدية، وفي مناطق المستنقعات وفي المرعى والسافانا. كانت أغلى أمنياتي أن يمنح العالم فرصة جديدة. هذه الأمنية كانت فوق ما يمكن لجني الخاتم أن يحققه. ولكنْ بدلًا من ذلك، طلبتُ أن أنتقل أنا عبر الزمن الذي كان العالم فيه ما يزال يملك فرصة. وفي رمشة العين وجدتُني هنا. ثم التقيتُ

بك. وها نحن هنا معًا إذن، جوناس. لن يكون لدينا فرصةٌ أخرى غير هذه. من الآن فصاعدًا علينا أن نعرف بالضبط ما نفعله. لأنه لم يبق في الخاتم شيء من سحرٍ بتاتًا. وأنا على يقين تام من ذلك.

يهز جوناس رأسه، ثم يقول :

– لا أعرف ماذا أصدق.

فتجيبه:

– ولكن ربما ليس هذا أهم في في الأمر.

– ماذا تقصدين؟

– المهم، أنك تصدّق.

تلقي أنّا نظرةً من خلال النافذة. وفجأة تلمح فتاةً في عمرها تسير في المزرعة. لم تتمكن من رؤية وجهِها، لكن هذا الشخص الذي مرّ بسرعة كان يتسم بشيء مألوف.

تنتفض بقوة قبل أن تتقدم من الباب وتشرّعه على مصراعيه، وهي تصيح:

– أوهِي؟

يتقدم جوناس من الباب ويريد أن يعرف الشخص الذي نادته.

– إنها نوفا، قالت، وهي تُغلق الباب من خلفها. لقد مرّت أمامي. ألم ترها؟

– لا، لا شيء.

– إنها هي التي أراها في الحلم. هي أنا عندما أكون في الحلم.

يمسكها بقوة من كتفها.

– لا شك أنك لا تقصدين أنك رأيتِ حقًا أمّ حفيدتك وهي تمرّ أمامك.

- بل رأيتها!

ولكن، يا أنّا...

- ماذا؟

- أتظنين أنه كان بإمكانك أن تسجلي ما رأيتِه بهاتفك؟

تفكّر مليًا.

- ربما لا. وليس هذا هو المهم.

- ليس مهمًا؟

- إنّ ما يهمّ هو أنني، أنا، رأيتها.

محكمة المناخ

إنه الصيف. ترتدي فستانًا أحمر. وقد طُلبِت كشاهدةٍ في المحكمة الدولية من أجل المناخ في لاهاي. وهذه هي المرّة الأولى التي تسافر فيها إلى الخارج.

تمشي في المدينة يدًا في يد مع الفتى العربي. لقد صارا يُشبهان العشاق، ومن يدري فلعلهما يتظاهران بالحب ليس إلا. يبدو الفتى العربي بطقمه الداكن وقميصه الأبيض كأنه رئيس دولة. فهو أيضًا مدعوٌّ شاهدًا في المحكمة، وربما لهذا السبب يرتدي هذا الطقم البهي. وهما يسيران هكذا في المدينة قد يخالهما الناس زوجين شابّين. لكنْ كلّ هذا ليس سوى كوميديا، أو مجرد لعبة.

ما بين البنايات الشاهقة يعْبُران ساحة كبيرة نُشر فيها نحو عشرة جمال. ربما كانت الساحة قديمًا موقفًا للسيارات. مركباتٌ بأربع عجلات تواصل سيرها في المدينة، وبعضها متوقف في هذا الموقع في هذه اللحظة، لكنها قليلة. لقد رُبطت الإبل إلى الأشجار، والسياراتُ بمحطات الشحن.

قبل سنواتٍ حَكمت المحكمة الدولية من أجل المناخ على النرويج بدفع سبعة وتسعين في المئة من صندوق النفط الوطني لمكافحة الفقر ولتدابير مناخية مختلفة، مثل بناء الحواجز والسدود. وقد حصلت الإمارة التي يأتي منها الفتى العربي عل حكمٍ مماثل. هناك مسؤولون عن جميع الأضرار التي اقترفت في حق كوكبِ الأرض والإنسانية من

خلال احتراق كل هذا النفط والفحم والغاز. على أي حال كانت تفريغ السريع لبطاريات الأرض الأحفورية تبديدًا للموارد العالمية، وقد تلقت النرويج على الخصوص حكمًا قاسيًا بسبب مسؤولية شركة النفط الوطنية في استخراج رمال الزفت استخراجًا قذرًا. وفي دفاعها عن نفسها تذرعت الشركة بأنه لو لم تفعل ذلك لكن آخرون فعلوه بصورة أكثر قذارة. لقد أضحى هذا التصريح قولا مأثورًا في العالم أجمع. لو لم نفعل ذلك لفعله آخرون بصورة أكثر قذارة. ففي لاهاي كثيرٌ من مجرمي الحرب دافعوا عن أنفسهم بهذه الطريقة.

يصعدان الدرجات نحو قصر العدالة حيث سيشهدان أمام المحكمة الدولية من أجل المناخ. كلُّ العيون متجهة نحوهما. الأطفال يلقون عليهما بتلات من الورود البيضاء، يتخيلونهما زوجين إذن، على الأقل هؤلاء الصغار، إنهما لطيفان جدًا.

على الشرفة تلتقيهما قناة تلفزيونية. فيُسألان عن موضوع شهادتهما. فتتطلع مباشرة إلى الكاميرا، وهي تقول:

– نحن شباب. سوف نشهد على أنّ أزمة المناخ لم تعد صراعًا ما بين الأمم. لا يوجد سوى غلافٍ جوي واحد، ومن الفضاء لا نميّز أي حدودٍ وطنية. ففي هذا الصراع الأجيالُ هي التي تتواجه، ونحن الشباب صرنا اليوم ضحايا لكل هذه الكوارث المناخية.

تحس أن الفتى الذي يرافقها بدأ يشدّ على يدها. وهذا يعني ربما أنه موافق على كلامها – أو أنه يبارك تعبيرها الجميل؛ أو ببساطة أنهما يتشاركان معًا في شيء عظيم ومهم.

وينظر إلى الكاميرا ويصرّح:

– كل منا جاء من أمّة نفطية، وهذان البلدان صارا فجأة دولتين

غنيتين. ولكن في الإمارة التي جئتُ منها اضطررنا للهروب من الجفاف الكاوي والحر الحارق. والآن لم تبق لدينا أرضٌ نعيش عليها. كل شيء تحوّل إلى أرض قاحلة ولم تعد البلاد قابلة للسكن.

ترفع عينيها نحو الفتى وهي تبتسم. ثم توجّه عينيها إلى الكاميرا وتضيف:

- هذا الشاب واحدٌ من ملايين اللاجئين المناخيين في الأرض، وقد جاء الآن ليقيم في بلدي.

القُفازان

يشرعان في ترتيبِ شاليه المرعى الجبلي. تُغلِق صمّام الموقد ويمسح بخرقةٍ سطحَ طاولة العمل في المطبخ. ويسأل إن كان بالوسع أن يرافقها إلى نيرود ويقضي الليلة في بيتها. اللهم إلا إذا كان ذلك العربي ما زال يحتل غرفة الوسائد؟

فتضحك. ثم تنقلب جادّة. تمسك بيديه وتحدّق في عينيه:

- الوقتُ غير مناسب لهذا الكلام في يومنا هذا، جوناس. لديّ شيءٌ يجب أن أسويه قبل منتصف الليل عندي شيء لا بد لي من كتابته وإرساله. لقد حدّدوا لي تاريخًا لتسليمه وله علاقة مع عيد ميلادي إنه شيءٌ أجد نفسي مضطرة لإرساله قبل أن أبلغ السادسة عشرة.

تعيد كل وثائقها وقصاصاتها الصحافية إلى الكيسين البلاستيكيين وتدسّهما في جيب معطفها، ويطوي جوناس بحثه.

- رغبتُ في أن أقدّمَ لك إجابةً أفضل على سؤالك كيف يمكننا إنقاذُ ألف نوع ونوع من النباتات والحيوانات.

ولعلّ من الإغراء المفرط أن نحمِل بكل بساطةٍ هذا البحث في خضم هذا الاندفاع.

- لقد وجدتُه مسليًا، جوناس.

يضع يدًا حول كتفها ويحدق في عمق عينيها من دون أن يرمش:

- إني مسرور أنك لم تقرّري الانفصال.

– على أيّ حالٍ ما كان يمكن لهذا أن يحدث. يمكنني أن أظل معك طوال العمر.

يهبطان منحدر مرعى الجبل، ولما يصلان إلى برفاتنيت، وفي لحظة افتراقهما ليذهب كل منهما إلى ميدان تزلجه، هو في اتجاه الجنوب الغربي وهي في اتجاه الجنوب الشرقي، يسألها مَن الشخص الذي ستكتُب له. هل هو شخصٌ ممّن يعرفهم؟

تظل أنّا كتومة وتجيب أنه شخصٌ قد يتعرّف إليه ذات يوم. ولكنْ عند الاقتضاء لن يكون ذلك قبل فترة قد تطول. فجأةً شيءٌ ما يُلفت انتباه جوناس. فيتفحص قفازي أنّا وهو يلاحظ:

عندما وصلتُ كنت تلبسين قفازين زرقاوين.

فتهزّ رأسها في حركةٍ ماكرة.

– أين القفازان.

فترفع قفازيها:

– هنا.

يكتفي بهزّ الرأس، لكن أنّا تخلع قفازيها وتريه أنها تستطيع قلبَهما واستعمالهما على الجهتين. زرقاوان من جهة، وحمراوان من الجهة الثانية.

فيضم أنّا إلى صدره.

– حسنًا، طيب، توخّي الحذرَ في جميع هذه المنحدرات! ولا تحاولي أن تلتقي بتلك الفتاة. لا ينبغي أن تُفلتي مني، أنّا. لا تتوهي في أيّ شيءٍ على الجانب الآخر. عِديني بذلك. لا ينبغي أن تُصبحي بعيدة عني... تمامًا... غريبة ومخالفة للصواب.

حديقة الحيوانات

هما الآن في ترام مزدحم يغادر المدينة. الطقس حارٌّ. كلاهما يرتديان جينزًا أزرق وقميصًا خفيفًا. تحت قميصها لا توجد سوى حمّالة صدر حمراء. ولا يعرف أحدٌ أنّ هذا الفتى يأتي من بلد عربي.

ينزلان من الترام عند مدخل الحديقة الكبيرة. وفوق بوابة الحديقة الواسعة لافتةٌ كبيرة كتِب عليها بأحرفٍ حمراء: حديقة الحيوان الدولية. الدخول مجاني. حديقةُ لاهاي الحيوانية هذه التي تعتبَر ملكية مشتركة للبشرية، مسجلة على قائمة اليونسكو للتراث العالمي.

فور دخولهما يلمحان العديدَ من الحيوانات تتحرك بين الشجيرات والأشجار، فوق سهولٍ ضخمة وفي فضاءات مزروعة تشبِه السافانا. وهناك أيضًا الحيوانات المفترسة الخطرة، مثل الأسود والنمور التي تتجول بحرية بين الظباء والغزلان والحشرات والقوارض والحيوانات الجرابية، والكائنات الشبيهة بالإنسان. فهي إذن حيوانات مروَّضة، على ما يبدو، لكن نوفا تعرف أن هذه الحيوانات ليست حقيقية. فهي في الواقع مجسمّات، في أحدث إصداراتها في العالم، فهي ليست لا من لحمٍ ولا من دمٍ، وإنما من أشعة الليزر.

حيوانات الحديقة تبدو حقيقية من حيث ألوانها وصورها الظلية وبحركاتها. أمامها يقفز فجأة كنغرٌ ضخم، فيأتي فهدٌ أسود ويطرده بسرعةٍ فائقة. وفي فضاء والحمامُ والطيور الجارحة ترفرف الأجنحة

خلط ملط. ليست حيوانات حية وإنما حيوانات افتراضية. فهي إذن لا تشكل خطرًا على الإنسان ولا على بعضها البعض. ولنفس هذا فهي هادئة أيضًا. تتطلب القليل من الرعاية، ولا تحتاج إلى طعام ولا لأن تُنظَّف من القمل والطفيليات الأخرى. ولا تقضي حاجتها في الأدغال.

يضع ذراعه اليمنى حول كتفيها. النزهة في هذه الحديقة الكبيرة مثل التجول في عالم الأمس، تقريبًا مثل الرجوع إلى جنة عدن.

ليس من قبيل الصدفة أن اختارت الحكومة العالمية لاهاي عندما تعلق الأمر بإنشاء حديقة حيوان دولية. فهي تقع في نفس المدينة التي تقع فيها المحكمة الدولية من أجل المناخ، لتكون بمثابة الشاهد على جميع المناطق المدمَّرة على هذا الكوكب. النماذج الحية لحيوانات الحديقة اختفت بالفعل من على وجه الأرض، ومع جميع المواثل والنظم الإيكولوجية التي كانت تزدهر فيها. والغطاءُ النباتي لهذا الموقع العظيم غطاءٌ ظاهري أيضًا. فكل هذه الشجيرات والأشجار ونباتات الزينة انقرضت في الحقيقة. العشبُ الذي يمشيان عليه هو وحده الطبيعة الحقيقية. وفيما تنحني لتربط رباط حذائِها إذ بها تلمح قملةَ نبات بلون القرمز، جدّ صغيرة، ربما هي الوحيدة الحيّة، وإن كان من الصعب معرفة حقيقتها.

ما انفك ابن آوى ثقيل الظل يقطع طريقهما، فيحاول الفتى العربي أن يُبعده برجلِه، لكن هذا الكليب الملحاح ليس حيوانًا حقيقيًا. فهو ليس إلا سرابًا. يتوقف لكي يتيح لابن آوى أن يذهب بعيدًا عنهما. فيداعب شعره. ويدعَ شعرَه البني ينساب بين أصابعه. ثم يسأله:

- هل هذه الحديقة أنشئت لكي تُمتع البشرية؟ أم أنها مجرد تذكير مؤلم؟

تُسرّب يدها تحت قميصه وتصفّقها فوق صدره وهي تنظر إليه:

- إنه تذكيرٌ مؤلم، ولكنه ضروري، بالإبادة الجماعية للأنواع التي لا يحق للبشر أن ينسوها أبدًا.

هُوية

بدأ الغسق يلوح في الأفق. أنّا تنحدر تزلجًا غابة البتولا وتتجاوز موقف السيارات. ومن هناك، تواصل النزول إلى أسفل الطريق الجبلي، الذي لم يكتنفه رملٌ ولا وحل.

فجأة تلمح الفتاة التي رأتها في شاليه مرعى الجبل. وبقفزةٍ تبتعد هذه عن الطريق وتتوغل في الغابة. كانت تحمل تحت إبطها جهازًا يشعّ ضوءًا أزرق. وهذه المرة تتبيّن أنّا شكل وجهِها. كانت تشبه أنّا قليلا، تشبه أنّا نفسها.

لفت نظرَها أنها لم ترَ وجهَها عندما رأتْ في حلمها أنها تلك الفتاة. فلم تقف يومًا أمام المرآة. وكم كان ذلك مزعجًا!

وتتوقف فجأة عند انحرافها وتشرع في الصعود ثانية بمشقةٍ لغاية المكان الذي قطعَت فيه الفتاة الطريق. وتتّجه نحو فرجة غابة البتولا وتلاحظ آثارَ أقدام عميقة في الثلج. لكنَ الفتاة التي كانت تبحثُ عنها اختفت وكأنها تبخرت.

صارت الدنيا ليلًا ولكن ليس تمامًا. لم يكن هناك أثرٌ للقمر في السماء في تلك الليلة، ولكنْ المزيد والمزيد من النجوم التي أخذت في الظهور في السماء.

لقد قرأت في مكانٍ ما أنّ أقرب نجم للشمس يبعُد عن الأرض ٤,٣ سنة ضوئية. اسمُه ألفا قنطورس. لكنّ السفر إلى نجمٍ مجاورٍ للشمس في الفضاء، بسرعة طائرة جامبو يستغرقُ خمسة ملايينَ سنة!

فكوكبها هو الأقرب وهو الأكثر عرضة للضرر.

تفكر في شيء قرأته في مقال مخزَّن في واحدة من العلب الحمراء. إنها قصة الخطوة التي يجب أن نخطوها والجرأة في أن نتجاوز أنفسنا. كان المقال في كيسٍ من البلاستيك، ولكنّ السماء صارت مظلمة جدًا فتعذرت القراءة، ولم تكن تحمل معها مصباحًا يدويًا. تفكر في بنتِ حفيدتها في نفس الغابة مع محطتها المحمولة، ثم تخلع قفازيها حتى تُخرج من معطفها هاتفَها الذكي الجديد. كانت تذكر صيغةً معيّنة أدخلتها في غوغل في محاولةٍ للعثور على المقالة على الإنترنت. ونقرت «ما هو مدى أفقِنا الأخلاقي؟» وفي أقل من ثانية ظهرت على الشاشة المقالة التي كانت تبحث عنها، وقرأت فيها:

> ما هو مدى أفقنا الأخلاقي؟ ففي نهاية المطاف هذا هو سؤال الهُوية. ما هو الإنسان؟ ومَن أنا؟ لو كنتُ فقط أنا نفسي – الجسم الذي يجلس هنا ويكتب الآن – لكنتُ مخلوقًا بلا أمل. على المدى البعيد، أقصد. ولكنْ لديّ هُوية أعمق من جسدي، ومن وقتي الوجيز على هذه الأرض. أنا جزءٌ في – وأشارك في – شيءٍ أكبر وأقوى من أنا نفسي.
>
> لو كان عندي خيارٌ بين الموت في هذه اللحظة، مع يقيني أن الإنسانية سوف تستمر لآلاف السنين، أو العيش في صحة جيدة إلى أن يصير عمري أنا مائة سنة، مع علمي أن جميع البشر سوف يموتون في نفس الوقت – لما تردّدت. لكنتُ اخترتُ الموتَ هنا والآن – ليس كضحية أضحية، ولكن لأنّ جزءًا مما أرى أنه «أنا» قد تجسَّد في الإنسانية

جمعاء. أخشى أن أفقِد هذا الجزء من ذاتي. مجردُ التفكير في أنّ مثل هذا يمكن أن يحدث يومًا، يرعبني كثيرًا. وأخشى أن تضيع الإنسانيةُ بعد مائة أو ألف سنة من جسدي أنا، أكثر ممّا أخشى أن يذهب جسدي في ثانية – وعلى أيِّ حال فهذا ما سوف يفعله في يومٍ أو في آخر.

يَحدُث لي أيضًا أن أفكر في اسم الكوكب الذي أعيش فيه. هي أنا وهي أيضًا. يُشغلني مصيرُ هذا الكوكب كثيرًا، لأنني أخشى أن أفقد النواة العميقة لهُويتي الجوهرية.

مؤلف النص لم يذكر اسمه وقد ظلت أنّا تتساءل من هو هذا الشخص. هل هي امرأة، أم يمكن أن يكون رجلًا أيضًا؟ ثم لم يسعها إلا أن تضحك. فالنص بأكمله ينصح بأن نكون أكبر وأقوى من ذواتنا.

ربما كان ذلك هو السبب الدقيق الذي جعل النص يخلو من التوقيع!

كوكب الأرض

هي الآن في سفينة فضائية مع الفتى العربي. لقد فازا بجائزة دولية لجهودهما الجديرة بالتقدير من أجل العالم الذي يعيشان فيه، والمكافأة اثنا عشر دورة حول الأرض في مركبة فضائية صغيرة.

يجلس كل منهما في مقصورة صغيرة منفردًا. ولا داعي للقلق بشأن الجوانب التقنية. كل شيء يُدار ويُراقَب بواسطة أجهزة كمبيوتر عديدة، وعليهما فقط أن يسترخيا في مقعديهما ويستمتعا بالرحلة.

يشاهدان الكرةَ الأرضية من تحتهما. وكلاهما يتذكران الصور باللونين الأزرق والأخضر التي التقِطت خلال بعثاتِ أبولو قبل مائة سنة. ويكتشفان أن كوكب الأرض لم يعد كما كان في تلك الصور. فأوضحُ ما في الكوكب حين يُنظَر إليه من الفضاء تلك السحب البيضاء وتغيّرات الطقس التي تغطيه الآن، وهو ما ينطبق حقًا على ما خبِروه على الأرض. الكرة هذه نفسها كانت قبل مائة عام تُشبه كرة مبرقشة صارت اليوم تشبه قطعةَ قطن لا لون لها.

لكنْ على الرغم من كل هذه الغيوم، تظل الرحلةُ في الفضاء تجربةً مذهلة، فما بين الأنظمة السحبيّة يستطيعان أيضًا رؤية بعض البقع الخضراء والبنية والزرقاء. ها هي أفريقيا، والهند، والصين، واليابان

لكنّ الذي أدهشها أكثر هو السكون. فالشيءُ الوحيد الذي تسمعه هو نفَسُ رفيقها في السفر. بل تخال أحيانًا أنها تسمع ضربات قلبه. هذا إن لم تكن هذه الدقاتُ دقاتَ قلبها هي.

يظل الفتى العربي ينظر إليها مبتسمًا بلا انقطاع.

- أنت جميلة جدًا، يقول، فتشعر بالاستحياء وتغضّ الطرفّ نحو الكوكب الذي جاءا منه.

وتتطلع إلى الأرض التي خلقتَها وتتمنى لو تستطيع أن تحوّل مجرى انتباهه وهي تجيب بأنها قادمةٌ من كوكب جميل. كانت الأرضُ فيما مضى جميلةً ساحرة.

ما من أحدٍ على الأرض يراهما الآن. لقد استسلما لنفسيهما كليًّا، واستسلم كلّ منهما للثاني تمامًا. فمع هذه الرحلة صارا بعيدين عن العالم حقًّا. تقول لنفسها إنّ أكثر الطرق حميمية لقضاء بضعة أيام مع شخصٍ تحبه، هو بلا شك أن تجد نفسها معه في مكوكٍ فضائي صغير.

هنا في الفضاء، لا يدوم الليل والنهار سوى ساعتين تقريبًا. لكنهما رأيا اثني عشر غروب شمسٍ واثني عشر شروق شمس. وفوق الغيوم ظلت السماءُ أمامهما زرقاءَ إلى ما لا نهاية.

الرسالة الإلكترونية

لقد تعشّت مع بابا قبل أن تتمنى له ليلة هنيئة. الشيُ الوحيد الذي تمنت أن تتحدث فيه أنها لن تضع بعد ذلك اليوم الخاتم الأحمر لممارسة التزلج. ماذا لو كان ضاع منها في الثلج!

لقد أزعجها كثيراً أن تحمِل معها هذا الخاتم قبل أن تقصِد إلى الجبل. فمن حيث لا يدري قد يخلع المتزلج قفازيه ليضبط حذاءه أو يثبت أجهزته، أو يفتح جيبًا، مثلًا ليقرأ رسالة سريعة. ومع ذلك فقد قالوا من قبل إن الخاتم أكبرُ من عمرها كثيراً، ولذلك السبب، ومن باب الحيطة انتظر والداها أن تبلغ السادسة عشر من عمرها حتى يسلّماها ذلك الخاتم.

تجلس أنّا الآن أمام الكمبيوتر في السقيفة الزرقاء. لقد أنهت كتابة الرسالة إلى حفيدتها ووضعتها على مدوّنة جمعيتها البيئية. وفيما كانت تكتب عناصر جديدة في الرسالة التي عثرت عليها نوفا على الإنترنت ما انفكت تعود إلى ذاكرتها، لكنها وجدت العناصر الرئيسية من تلقاء نفسها. وتعيد قراءة كامل الرسالة مرة أخرى:

عزيزتي نوفا، لا أعرف حالَ العالم في اللحظة التي تقرئين فيها هذه الرسالة. ولكن أنتِ تعرفينه. تعرفين مدى سعة الأضرار المناخية التي حدثت، وإلى أي حدٍّ تقهقرت الطبيعة وربما أيضًا الأنواع من النباتات والحيوانات التي انقرضت. من الصعوبة بمكان أن أكتب إليك. ليس من

السهل أن نكتب لشخصٍ سيعيش على هذه الأرض بعد أجيال عديدة من بعدي، وليس من قبيل تدبير الأمور أن يكون الشخص الذي أكتبُ إليه هي بنتُ حفيدتي. ولكني سأكون صريحةً وصادقةً ما وسعني ذلك.

هنا، حيث أنا في أغنى زاويةٍ في العالم ليس هناك سوى شيءٍ واحدٍ مُهمّ. هذا الشيُ أطلقنا عليه اسم الاستهلاك، أو أننا نتحدث عنه كاستهلاك. ففي مجتمعات أخرى يتحدث الناس في غالب الأحيان عن الضرورات الحيوية. فعندما نستعمِل بدلًا من ذلك ألفاظًا مثل الاستهلاك، فذاك ربما لأننا نرفض الإقرار بأنه لا وجود لحدودٍ عليا. الكأسُ لا تمتلئ أبدًا. هناك كلمةٌ لم تعد ساريةً تقريبًا، هي الكلمة الصغيرة كفاية. لذلك صرنا نزرع من حولنا بدلًا منها كلمةً أخرى، أقصرَ منها بكثير. إنها كلمة أكثر.

والشيء الذي تعرفين عواقبه أكثر مني، وهو الجليد في غرينلاند وجليد القطب الشمالي المحيطي قد بدأ في التراجع، وبدأت بالفعل عمليات البحث عن احتياطيات جديدة من النفط والغاز. يقول رجالُ السياسة إن العالم يحتاج إلى مزيد من الطاقة. العالم يحتاج المزيد من النفط والغاز ليُخرج الناس من براثن الفقر. ولكنّ هؤلاء يكذبون. إنهم يعرفون أن مصلحة الفقراء ليست هي التي تحركهم. فهم يعون بالطبع أن استهلاك الأغنياء للمزيد من النفط

والفحم سيجعل الأمور أسوأ بالنسبة للفقراء. فالشركات وأغنى دول النفط هي التي تحتاج إلى مزيد من الربح. إذنْ أكثر فأكثر. ليس هناك أيّ إرادة سياسية لترك النفط والغاز في حالهما. ومما يؤسف له أيضًا أننا نفتقر إلى إرادة شعبية معادلة. نحن جيلٌ أناني. نحن جيل وحشي. هناك فهمٌ قليل لحقيقة أن الأجيال من بعدنا أيضًا قد تحتاج إلى بعض من هذه الطاقة. كلمةٌ نادراً ما تستخدمها ألا وهي كلمة ادخار. ولكنّ مصطلحات مثل «الوعي البيئي»، «الكربون المحايد» والهذر والثرثرة، كلمات كثُر استعمالُها وشاع استخدامُها في الصحافة وفي الوثائق الرسمية. لقد طورنا لغة، تكاد تكون لغة من أجل الضحك، وليس لها أي صلة تقريبًا مع واقعنا المادي.

إذن أليس هناك حقًا ركن ولو صغير من التفاؤل والحماس في هذه المتاهة؟ ربما، وربما لا. لا أملك إلا أن أطرح السؤال وأنا أعلم أن الجواب بالنسبة إليك واضح.

إنها مساهمة ضئيلة أقدّمها هنا، ولكن لا أرى حلّا أفضلَ، هدفه هبّةٌ شعبيةٌ قويةٌ لحماية موارد هذا الكوكب في المستقبل. حاول أن تتخيل ما يلي:

ففي كل مكان فيه بشر - في الغابات والجبال

والساحات وزوايا الشوارع، وفي محطات مترو الأنفاق والمطارات – يعرضون علينا روبوتات خضراء. نستطيع أن نُدخل بطاقتنا لإظهار ما يمكن أن تتمناه في مجال أفضل شرائح الأفلام حول الطبيعة والحياة البرية في العالم. ربما قد تعلّق الأمر بحيوان أو بأنواع النباتات التي نريد دراستها، أو بنظام بيئي معين، أو بمنطقة حياة الآلاف من الأنواع. هو أننا لا نرى من الطبيعة إلا التي نتحمل نحن أنفسنا مسؤوليتها. ليس أكثر. كل الأموال التي تصل إلى هذه الآلات – نستطيع أن نركّب منها الملايين عبر العالم – تُستعمل بالفعل في حماية الطبيعة الأرضية. وفي الوقت نفسه يشارك مستخدمو هذه الآلات في مجموعة متنوعة من المسابقات المسلية والألعاب المالية..

لذا ربما من غريبِ الأمور أن يُشكل جيلٌ جديدٌ من آلاتِ الألعاب أملَ العالم في الوقت الحالي. من المؤلم أن نعترف بذلك. ولكنْ لن نحقق أي شيء بإنكارِ طبيعة الإنسان والديمقراطية.

هناك أشياء كثيرة أجهلها فيما يتصل بالمستقبل. أعرف فقط أني سأساهم في صُنعه. ولعلني قد بدأتُ في صنعه بالفعل...».

مع خالص تحياتي لك ولكل العالم الذي ستكبرين فيه وتعيشين حياتك فيه.

مع محبتي

والدة جدتك أنّا (نيرود)

وهنا، دقت ساعات منتصف الليل وكان عيد ميلادها. كنا في ٢٠١٢/١٢/١٢. كادت تصاب بالذهول أن لا يحدث شيء خاص في نفس اللحظة التي تنتقل فيها الساعة إلى منتصف الليل، وأن لا يحدث تصادم سيارتين في محطة البنزين، وأن يسقط شيءٌ من مكتبها، وأن يسقط ثلج من السقف.

ولكن بعد هنيهة تلقت رسالة قصيرة من بنيامين:

كل شيء على ما يرام. لقد أفرج عنها جنود كينيون قبل بضع دقائق. إستر في صحة جيدة لقد اتصلت بي قبل قليل. شكرًا على دعمك المعنوي لي! تحية من بنيامين. حاشية: لقد عاملوها معاملة جيدة، وقد استطاعت أن تبقى في الخارج ولم تُكبَّل قدماها ولا يداها. وقد لعبت زهر النرد مع الخاطفين! وأما أنا فقد ركضتُ. ب.

تتنفس انّا الصعداء وتحس بدمعة في زاوية عينها. لكن بنيامين لم يتخلص من ورطته بسهولة. لقد طلبته، وفتح الخط بـ:

– أنتِ أنّا؟

–كنت واثقًا من أن إستر سيفرج عنها حين يحين ١٢ كانون الأول.

– لماذا؟

- العالم أغلق حلقة وعَبَرْنا عتبةَ عهدٍ جديد.

- ولكن لماذا؟

- ظني أنكَ لا تملك الصبر الكافي لتسمعني وأنا أروي لك كلّ شيء. لكن عمري اليوم ستة عشر عامًا.

- عيد ميلاد سعيد!

- شكرًا.

من لطفِك أن تطلبيني في هذه اللحظة. أنّا، ولكنْ بعد الآن ستنتظرين قليلًا قبل أن تطلبيني.

- إذن سأقصّ عليك شيئًا فقط، ثم عندي سؤال أُلقيه عليك.

- هيا احكِي! ولكن علينا أن نختصر قليلا.

- سبق أن قلت لك إني أحلم بلا انقطاع أني بنت حفيدة... ولكني الآن رأيتها أيضًا في اليقظة. أتستطيع أن تثبت مرة أخرى أني لست مريضة؟

- لا أنّا، أنت لست مريضة. ثم

- نعم؟

- ربما أنت أكثر صحة من معظم الناس. ربما ينبغي أن يكون هناك مزيدٌ من الناس مثلك.

- كيف؟

- يجب علينا أن نتعلّم كيف نتبصّر خلفَنا بصورة أفضل، وأن نشعر بوجود أولئك الذين سوف يرثون الأرض من بعدنا.

- كلام جميل!

- هل هناك شيء آخر.

- ما سرّ النجمة التي في أذنك؟

فيضحك.

– زوجتي هي التي أهدتني إياها قبل أكثر من ثلاثين عامًا، قبل أن تأتي إستر إلى الدنيا بأيام قليلة.

– برافو!

– إستر تعني «نجمة». وهذا الاسم القديم لا يشير إلى أيّ نجمة، ولكن إلى نجمة الصباح – أو فينوس.

– أحسني غبية!

– لماذا هذا؟

– لأنني لم أحزره .ولكنْ رائع على أي حال.

ليلة هنيئة، أنّا.

– ليلة هنيئة بنيامين.

– انتظري قليلا، أنّا!

– نعم؟

– أبالإمكان أن تحرريني من السر المهني؟

– ليس عندي ما أخفيه، ولكن لماذا؟

– قد أشعر بالرغبة في توجيه التحية إلى إستر من قِبلك. لقد كنتِ دائمًا تذكرينني بها عندما كانت في عمرك. عندكما الكثيرُ من نفس الجرأة، ومن نفس الالتزام.

– رائع. إذن بلّغْها تحياتي!

– ولكن بحصر المعنى، ليس من حقي أن أتحدث عن مرضاي.

– لكن الآن، من حقّك، ما دمتُ قد حرّرتكَ من أمنية هذه الخصوصية. إنه لمن اللطف أن تحيّيها من طرفي، ولا تتردد في أن تروي لها كل ما جرى بيننا من حديث.

- لستِ على خطأ تام.

- أنتَ صاحب، بنيامين. وهذا كل شيء.

فتضحك.

- إذن نحن هكذا. ليلة هنيئة، أنّا.

- ليلة هنيئة.

تتهيّأ للّيل وتنام. لقد شعرت أنّ دهرًا مضى منذ المرّة الأخيرة التي نامت في سريرها.

ربما لأنها كانت عائدةً إلى هذا السرير الذي ما إن أفاقت فيه من نومها حتى تذكّرت في الحال مقطعًا مُهمًّا من حلم الليلة الماضية.

خطأ منطقي

كان الوقتُ صباحًا باكرًا والمطر يسيل دِلاءً. وهي جالسةٌ في سريرها في الغرفة الحمراء تنظر إلى محطتها المحمولة. تظن أنها وحيدة، لكنها تلمح عُلا في النافذة الضيقة، وهي تتأمل الوادي. تسعل سعالًا خفيفًا حتى تعرف عُلا أنها ليست وحدها في الغرفة. تلتفتُ السيدة العجوز إليها وتقول بصوت خافت:

– نعم، طفلتي؟

تقرأ بصوتٍ عالٍ البريد الإلكتروني الذي وجدته من فورها: عزيزتي نوفا، لا أعرف حال العالم في الساعة التي تقرئين فيها هذه السطور. ولكن أنتِ، تعرفين ذلك

ترتجف عُلا. وتحرك ذراعها الأيسر فيتألق الخاتم الأحمر في الأجواء. يبدو أنها فعلت ذلك حتى تُظهر سلطتها.

– لقد وجدتِ في النهاية إذن ما كتبتُه لك.

– ولكنْ ما مصير الروبوتات الخضراء ؟ فهل تم تركيبها؟

تتطلع إليها عُلا وتجيب بلهجة قارصة:

– أستنكف! لا بد من أن أستنكِف عن دوري، نوفا، لأنه أيًا كان جوابي على هذا السؤال، سيكون هناك خطأ منطقي.

– وهل سيكون هناك خطأ منطقي أيضًا لو طلبتُ منك ماذا كان اسم والد جدي؟

تقوم السيدة العجوز بحركةٍ من رأسها في غنجٍ ودلال تقريبًا.

- ألا تذكرين؟ فلم يمر وقتٌ طويل على الزمنِ الذي كنت فيه تقفزين على ركبتيه. وأخيراً، الفتى الذي كنتِ تفكّرين فيه اسمه جوناس، وهو من لُو.

- جوناس

- ألم أخبركِ أننا اعتدنا اللقاء في شاليه مرعى الجبل القديم؟ كان يأتي تزلّجًا من لُو، وكنتُ أنا أصعدُ إلى نيرود. في تلك الأثناء كنا نكتفي باسم «الجبل». «نلتقي في «الجبل» كنا نقول.

- هكذا. والآن لم يعد هناك دغلٌ في الأعلى.

لكن أنّا ترميها بنظرةٍ صارمة مرّة أخرى تعنّفها:

- أستنكفُ! هناك مرّة أخرى خطأ منطقي. لأنّ العالم الآن حصل على فرصةٍ جديدة.

تديرُ من جديد ذراعها الأيسر، فتتلألأ الياقوتة المصقولة.

والدُ الجَدّ

مكثت أنّا ممدّدةً لوقتٍ طويل تستمع إلى صريرِ وطقطقات الجدران الجامدة خارج المنزل. وفي اللحظة التي غرقت فيها في النوم بدأت تحلم بطائرٍ أحمر اللونِ ينقر على زجاج النافذة حتى يدخل إلى غرفتها. كان الحلمُ من القوةِ ونقْر الطيرِ من الشدةِ ما جعلها تفيق من نومها. فتُنير المصباح من فوق سريرها وتمسك بهاتفها الجديد وترى أنها تسلمت رسالةً قصيرة. فلعلّ ذلك هو ما أيقظها. أو لعلّه الجليد الذي يطقطق في الجدران.

كانت الرسالة من جوناس:

- هل أنتِ مستيقظة؟

تنقر على الجهاز ردّها:

- نعم. لقد أيقظتني.

- عيد ميلاد سعيد!

- شكرًا لك يا جوناس.

- لقد قرأتُ.

- قرأتَ؟ أنا لا أفهم.

- ما كنتِ ستكتبينه. لقد وضعتهِ على المدّونة.

- النجدة! لم أكن أتصور أن هذا سيُقرأ قبل سبعين عامًا. أتستطيع أن تطلبني الآن؟

بعد ثانيةٍ واحدة، رنّ جرسُ هاتفها المحمول.

– أتعرفين أن كل شيء مرّ بسلام في أفريقيا؟ يسأل.

– نعم، شكرًا لك. لقد تحدّثتُ إلى بنيامين. وهو بطبيعة الحال سعيد هل تعرف لماذا يحمل نجمة في أذنه؟

– «لا تخشَ أبدًا سلطانَ الظلمة، فسوف تتألّق النجوم ...»؟

–لا، هيّا، كفَّ عن بلهِك، جوناس.

– حسنًا، قولي أنتِ لماذا، إذن!

– زوجته أهدته النجمةَ بعد أيامٍ قليلة من ولادة إستر. وإستر يعني «نجمة»...

بدأ جوناس يُغرق أنّا بتمنيات عيد الميلاد وبالثناء على الرسالة التي وضعتها على الإنترنت. كان مسرورًا جدًا بحديثها عن الروبوتات الخضراء. ثم يقول لها:

– لقد لاحظتُ شيئًا كتبتِه في النهاية: «أشياءُ كثيرة أجهلها عن المستقبل. وأعرفُ فقط أني سأساهِم في صنعه. ولعلني قد بدأتُ في صنعه بالفعل...»

– نعم، وهذا هو ما كتبتُه لبنتِ حفيدتي.

يسعل سعلة خفيفة مرّة أخرى:

– ربما يُكتَبُ لي أن أكون والدَ جدِّ هذا الطفل.

فتضحك. وتفرط في الضحك حتى صارت فجأة تخشى أن توقظ والدها في الطابق الأسفل. ثم تهمس في الهاتف:

– تعال، إذن، جوناس!

ويأتي دورُه في الضحك. صار يصهل.

– هل أنتِ مضروبة.

- أشياءُ كثيرة صارت مضروبة.

- ربما نستطيع أن نبدأ في السعي للنضج معًا منذ الآن. لا أرى ضرورة ملحّة تدفعنا لأن أصير والدَ الجدّ أو لأن تصيري أمّ الجدّة منذ هذه الساعة.

فضحك مرّ أخرى:

- على أيّ حالٍ سوف أنجز الكثير من الأشياء الأخرى قبل أن أنجب أطفالا. ففي هذا الصيف سأذهب الى بيرغن بالدراجة الهوائية. فهل سترافقني؟

-عن طيب خاطر، إذا كنت سترافقينني إلى روما بالقطار.

- أكلامك جادّ؟

- أقسمُ بأني صادق.

- هذا ما قصدته. الآن نحن على الطريق. أتعرف أنه بالإمكان المرورُ بهولندا؟

- بالتأكيد. الهولنديون يذهبون كثيراً إلى روما. أترغبين في زيارة أمستردام؟

- بكل سرور، ولكن حسبتُك تقصد لاهاي.

- لاهاي؟ ألديك موعد مع مجرمِ حرب؟

- لا، ولكن ربما سنُنشِئُ في يوم من الأيام محكمةً دولية للمناخ في لاهاي. لكَمْ أودّ أن أقضي معك يومًا في هذه المدينة! هناك أمرٌ أودّ أن أكتشفه. ولعله شيء أريد أن أعرّفك به. أرضٌ واسعة، ربما حظيرة، أو حي بكامله.

- أنتِ هنا تثيرين فضولي.

- لكن يجب أن تعدني بأننا سوف نمنح فرصةً أخرى لهذا

الكوكب، هذا هو الأمر الأهم. وأننا سنستعين بالكثير من الناس.

– بالطبع.

– أتؤمن بهذا، جوناس؟ أريد أن نكون مؤمنين بما نقوم به.

– نعم

– هل أنت متفائل؟ أم متشائم؟

– لا أعرف. كلاهما، ربما. وأنتِ؟

– متفائلة، أنا، جوناس. وهل تعرف السبب؟ لأني أرى أن التشاؤم أمرٌ لاأخلاقي.

– لاأخلاقي؟

– التشاؤم ليس سوى مجرد كلمة أخرى للكسل. قد أكون مهمومة ومنشغلة، وهذا شيء مختلف، ولكنّ المتشائمين هُم من يستسلمون.

– أنتِ لست على خطأ في هذه النقطة.

–ثم هناك شيء اسمُه الأمل. وعمليًا يمكن أن يكون هذا في بعض الأحيان قتالا. أتريد أن تكون كذلك، جوناس؟ أتريد أن تأتي لكي تقاتِل في العالم؟

– أعتقد أنكِ تستطيعين أن تدربيني على أيِّ شيء.

– إذًا أضعك على المحك.

– هيا أرسلي!

– هل تريد أن نبدأ في القراءة معا؟

– القراءة؟

– أقصد قراءة هامسون، ودوستويفسكي وكل شيء. والأدب الكلاسيكي، شكسبير وهوميروس. والحكايات القديمة، ألف ليلة

وليلة والأساطير، ويمكن أن تبدأ بالأساطير اليونانية والنرويجية. أريدُ أن أقرأ عن اغدراسيل وراجناروك. أريد أن أقرأ عن كاساندرا، التي كانت عرّافة وتتنبأ بكل ما سيحدث، والتي لم يصدّقها أحد.

– هل تقصدين القراءة بصوتٍ عالٍ؟ أليس في هذا قليل من ...

– لا، لا. ولكننا نقرأ نفسَ الكتاب في وقتٍ واحد تقريبًا. وهكذا سنغوص معًا في عوالم أخرى. ننتقل في نفس المناظر الطبيعية الوهمية. وبهذه الطريقة سنصل في نهاية المطاف إلى دائرة كبيرة من المعرفة الافتراضية. ويمكننا أن نذهب للتنزّه في الجبال، مع سلسلة طويلة من الأصدقاء غير المرئيين.

– حسنًا. اتفقنا.

– نبدأ غدًا إذن. اشتريتُ نسختين من أسرار همسون. رأيته متاحًا في المكتبة وأعجبني العنوان. واليوم عيدُ ميلادي، وأبي سيعطيني بالتأكيد بعض المال. أنت لم تقرأه بعدُ؟

– لا. أراكِ تفاجئينني بلا انقطاع.

– وهذا أمرٌ جيد.

– ربما

– في هذه اللحظة بالذات أرى من الجنون والعتَهِ حقًا أن يعيش الإنسان. إنه أقصى ما يصلُه العقل. شتان بين أن يكون عمرُك ستةَ عشر عامًا وبين أن يكون خمسةَ عشر فقط وثلاث مائة وأربعة وستين يومًا. هناك أشياء كثيرة أريدها. أتعرِف ما الذي سأفعله قبل أن أذهب إلى المدرسة غدًا؟

– لا، لستُ أنا العرّاف.

– سأعرف كم هناك من أنواع قمل النبات.

- أنت إذن «مضروبة» حقًا.

- ولكنْ أنتَ من أوحَى لي بالفكرة.

- ماذا؟ أنا؟

- لقد تحدثتّ عن هذا في بحثك. لقد كتبتَ بأنك تريد إنشاء صندوق لجميع أنواع قمل النبات المهددة بالانقراض. لهذا إذن سألتُ نفسي كم عدد هذا النوع من الحشرات.

- لقد نسيتُ تمامًا. ولكن هنا علينا ربما ببعض النوم.

- لا تسِرْ رويدًا رويدًا هكذا، جوناس. فعندما أرسلتَ لي رسالتك كنتُ قد نمتُ ثانيةً واحدة لا أكثر، والآن أراني صاحيةً تمامًا.

- لكن بعد اليوم الذي أمضيتِه سوف تعودين للنوم ثانية. ثم لا شك أنهم سيوقظونك في الصباح الباكر. ألا تظنّين أنّ والدك سيُعِدّ لك فطائر مع مشروبات غازية؟

- الأرائك والشاي، جوناس. أنا تجاوزتُ سنّ الفطائر والمشروبات الغازية.

- لذا أقول لك ليلة سعيدة!

- أتعرف ما الذي سأفعله إنْ تعذّر عليّ النوم؟

- عَدُّ الأغنام.

- لا، إنك تتحمّس كثيراً. سوف أعدُّ قملَ النبات. سأغمِض عينيّ وأعدّ هذا القمل الحيوي القرمزي. وغدًا سأقول لكَ كم حسبتُ منه قبل أن أنتقل إلى بلاد الأحلام.

- ربما سأفعل الشي نفسه. وهكذا سنرى من تأخر نومُه أكثر. ليلة هانئة، أنّا! أراكِ غدًا!

- ليلة سعيدة.

القرية

كان الوقت ليلًا وكان السوادُ فيه دامسًا، ولكنّ الجو حارٌّ جدًا. فهي الآن جالسةٌ على الأرض عند تخوم إحدى القرى برفقة ثلاثة رجالٍ في عمرها. في ضوء مصباح الغاز المزرق، ترى أن الناس جميعًا مجهزون بأسلحة آلية. مصباحُ الغاز معلّق في أعلى ملجأ متداعٍ. وفوق هذا المأوى كيسان من الذرة، كُتب عليهما: برنامج الغذاء العالمي.

في الأدغال المحيطة تسمع صريرَ صوتِ المطاحن. ففي القرية المجاورة تسمع النساء يثرثرن ويتضاحكن، وتسمع ثغاء الماعز، وفجأةً صوت رضيع يبكي. لكن البكاء ينقطع بعد برهة، فتقول إنّ الطفل قد أخذ الرضّاعة.

ليست خائفة. لكنها تفهم دفعةً واحدة حيث هي ومَن هِي، إنها إستر، وقد جعلتها الحياةُ رهينةً في مكانٍ قاحلٍ مهجور على الحدود بين الصومال وكينيا.

الخفافيشُ ترفرف بأجنحتها أمام مصباح الغاز. تتطلع إلى خاطفيها. يهزّون لها رؤوسهم، وترفع زهرَ النرد من على الأرض الحمراء قبل أن ترمي بها. قطع زهر النرد تتدحرج فيما بينها وتنتهي جميعها على وجْه النقاط الستِ. تبتسم ابتسامةً متكلفة، لأنها تملك الكثير من الستّات. وترتسم الابتساماتُ أيضًا على شفاه الرجال المسلحين ببنادق آلية.

– أنتِ الفائزة! يصيح أحدهم.

وبعبارة ضمنية أكثرَ قتامة يضيف آخر:

- بيضُ الشمالِ هم الفائزون دائمًا.

ما بينهم توجدُ زجاجةٌ من عصير الليمون وأربعة أكواب. ويقدّم الضيافة أحد الرجال.

ترفع عينيها إلى السماء. لا قمر في السماء، والسماء تعرِض في سخاء مطرًا من النجوم لم ترَ مثلها في حياتها قط. من بُعد المنال، تقول لنفسها، أن تحدُثَ كلّ هذه الحروبِ والعِداءُ من تحت مثل هذا المنظر الكوني الخلاب. لقد شعرت بالعار على الإنسانية.

النقيقُ الشديد الصادر عن الصراصير، والأصواتُ المتناثرة في القرية المجاورة تشير إلى السكون الذي يلفّ الليل. هناك شيء يبعث على الاطمئنان، وعلى الألفة في هذه الضوضاء الليلية.

ولكنْ فجأة شيءٌ ما يتحرك في الأدغال فتنكسر الأجواء الرائقة فجأة على وقع تفجيرات قوية وأوامر حازمة بلغة لا تفهمها. يُطلق أحد الخاطفين النارَ بسلاحه الآلي، ولكن في اللحظة التالية، ينبطح الجميعُ في الأرض وهو يطلبون الرحمة، وتنبطح إستر أيضًا، إذ تفعل مثل ما يفعله كل من كانوا معها، فتنبطح وترجو الرحمة. وفي القرية يتردد صدى صرخات رعب النساء اللواتي كنّ يتحدث ويضحكن، وقد عاد الطفلُ للبكاء مرة أخرى.

يكبل المختطفون أيادي الرهائن ويقتادونهم إلى سيارة جيب خضراء ظهرت فجأة، ويتكفل بإستر أحدُ الضباط بزيه الأخضر ويصيح فيها بلغة إنجليزية بسيطة:

- أطيب التمنيات من والدك بنيامين!

إستر

لم تنعمْ أنّا بالنوم سوى بضعِ ساعات فقط، ولكنْ عندما تصحو من نومها تشعر كأنها سافرتْ لشهور عديدة. لقد وجدت نفسَها من جديدٍ في مكانٍ آخر من العالم. وقبل أن يرنّ الهاتف، أو ربما في ذات اللحظة إذْ بها تتذكر أنها كانت هي نفسها إستر شخصيًّا، الرهينة في منطقة القرن الأفريقي.

ولما تأكدت أنّ جوناس هو الذي طلبها أجابت ببساطة:

- مرحبًا، مرحبًا!

ولكنها تسمع صوتًا أنثويًّا:

- هل أنتِ أنّا؟

- نعم، من معي؟

- أنا إستر أنتونسن. أحدّثكِ من نيروبي.

فتنتفض أنّا.

- لم أعد أفهم شيئًا على الإطلاق. لقد خرجتُ من فوري من حلمٍ كنتُ أنا أنتِ فيه ... لماذا طلبتني، بالضبط؟

- عيد ميلاد سعيد، أنّا! هذا هو السبب الذي طلبتك من أجله. صار عمرك ستة عشر عامًا.

- شكراً.

- بابا حدثني عنك. فهو الذي اقترح عليّ أن أطلبكِ لكي أقدّم لك تمنياتي بعيد ميلاد سعيد. لقد رفعتِ معنوياته عندما اختفيتُ. أنا مدينةٌ لك بالشكر الجزيل!

شعرت أنّا بالسعادة لنجاحها في أن تكون دعمًا وسندًا لبنيامين.

وتوضح:

- لقد حرّرتِه من السرّ المهني وطلبت منه أن يحييك من طرفي. أنا معجبة بالأرواح الملتزمة التي تخوض في الميدان حتى تساعد أكثر الناس فقراً.

وقبل أن تسترسل في الكلام تسألها إستر:

- أصحيح أنكِ رأيتِ في الحلم أنكِ كنتِ أنا؟

- صحيح تمامًا، نعم. كثيراً ما أحلمُ أنني صرتُ شخصًا آخر. فلهذا السبب تعرّفتُ على والدك. ذات مرّة حلمتُ أنني صرتُ فيلا. كان شعورًا غريبًا أن أصبح فيلاً. ولكن في تلك الليلة رأيت في الحلم أنني كنتُ أنتِ. أخبريني كيف عاملكِ الخاطفون؟

- جيد، في العموم. لقد توسّلتُ إليهم لكي أنام تحت النجوم. لم تكن هناك مشكلة، كانوا يتناوبون على الحراسة. ولكن في الواقع مكثنا يقظين طوال الليل، نلعب لعبة زهر النرد.

- وقد فزتِ بها. أليس كذلك؟ كنتِ الفائزة!

- كيف عرفتِ؟

- هكذا

-أنّا، كيف عرفتِ ذلك؟

- أتعرفين ما الذي حدث للخاطفين؟ لديهم زوجات وأطفال

-خاطفو الرهائن سُلِّموا للسلطات الصومالية.

- ثم

-أقرُّ أنهم عاملوني باحترام. لكن لم يكن الأمرُ هيّنًا. كنتُ خائفة. لا نقبل أن يصبح عمّال الإغاثة الإنسانية رهائن. يمكننا أن نجتهد في فهم الإرهابيين، ولكن لا نغفر للإرهاب أبدًا. هؤلاء الأولاد ربما يجب أن يقضوا عقوبة في السجن لبضع سنوات قبل عودتهم إلى بلادهم.

- حسنًا...أعود بذاكرتي إلى قصة «النساء والأطفال».

- ما الذي يمكن أن تقوليه هذه المرة؟

- رأيت صورة لكِ في صحيفةٍ على الإنترنت. ثم طلبتُ بنيامين على الهاتف. ربما كان ذلك لأنني تعرّفتُ إليك من صورة كانت على مكتبه.

- ولكن هذه الصورة صورةُ أمي، لقد أُخذت قبل عقود.

- أعلم. إذن أنتما متشابهتان كثيراً...

يسود بعض الصمتِ على الخط.

- كثيراً ما يقال إني صورةٌ من أمي. ولكنها ماتت وأنا صغيرة، أنا، ومنذ ذلك الوقت لم يبق لبنيامين سواي. ومع الوقت جاءه لوكاس، ابني. وعندما أخذوني رهينة، خشي بنيامين أن يفقدني أيضًا، وربما كان أكثر قلقًا من أن يكبر لوكاس من دون أمّ.

- هكذا أفهم. كان متوتّراً جدًا   كم عمرُ لوكاس؟

- ثماني سنوات. يحب جدَّه كثيراً، ويبدو أنّ الحب متبادل بينهما.

- أتصورهما كذلك! بالنسبة لي صار والدك صديقًا. هل تخمّنين لماذا؟

– لا، ولكن أودّ أن أعرف.

– لقد فهم مشكلة المناخ، ويشعر أنه معنيّ أيضًا. ولكنْ هذا ليس كل شيء. فالشيءُ الآخر أنه جادٌّ في الحديث عن هذه المسائل مع فتاة في عمري.

– ولكن عندما كنت أنا في السادسة عشرة كنت أتحدّثُ إلى أبي حول هذا الموضوع تحديدًا. لكنه لم يكنْ يصغي كثيراً. فأنا التي علّمتُه.

– أحقا؟ أهي الفتاة التي تُعلّم أباها؟

– لا، لا، لقد علّمني كيف أقفز وأرتدّ في داخل الماء. علّمني الطيور. علمني كيف أنحتُ المزامير في القصب، وصناعة السفن بقشرة الأشجار، وأكاليل الزهور.

–كان إذن أبًا طيّبًا.

– ولكنني انخرطتُ في الطبيعة والشباب من تلقاء نفسي، وأنا من درّس المناخَ لأبي بعد عودتي. ومنذ ذلك الحين وأنا أُطلعه على تطورات الأشياء.

– رائع! وكيف تلخصين هذا التطور؟

– الأنهارُ الجليدية في العالم آخذةٌ في الانصهار، وقد وصلت كتلُ الجليد الدائم في المنطقة القطبية الشمالية إلى أدنى مستوى من الانخفاض الذي يثير الخوف. كان شهرُ أيلول من هذا العام أكثر الشهور التي عرفناها، حرًّا وقيظًا. ففي الولايات المتحدة وحدها كان هناك أكثر من ألف رقم قياسي للطقس. لقد ظهر العديد من أعراض الاحتباس الحراري قبل أن نتوقّعها بكثير، حتى مع الأخذ في الاعتبار سيناريوهات المناخ الأكثر تشاؤمًا. الملايينُ من الناس يعانون بالفعل

من العواقب التي سبق وأن حذّرنا منها منذ بضع سنوات. إننا نشهد نماذج لكوارث مناخية تزدادُ تواترًا وتدميرًا، كالفيضانات وموجات الحر والقيظ، وحرائق الغابات، ولا مصير للناس سوى الفرار.

- أعلم ذلك ...

- ولكنّ العالم لم يهتدِ بعدُ إلى سبيلٍ للاتفاق حول خفض الانبعاثات. الدولُ النفطية في العالم ليست قادرة على التخلي عن آخر قطرات النفط! والأكثر ثراءً ليست على استعدادٍ لأن تتخلي عن بعض من امتيازاتها. وكلما تأخرنا في تدبير رأينا صار التغييرُ أكثر كلفة.

- هذه الكوارث لا بد وأنها بالفعل تُكلّف الكثير من المال؟

- بالطبع. فقبل بضع سنوات، قيل إننا ننتمي إلى الجيل الأول الذي كان له تأثير على مناخ الأرض، وفي الوقت نفسه لآخر جيل قد لا يضطر لدفع الثمن. ولكن هذا التصريح لم يعد مناسِبًا. لقد شاهدت بأمّ عينيّ، وعشتُ استغاثة المناخ، وشهدتُ الجفاف، ورأيت أطفالًا يموتون بين يديّ يا للحزن والألم، أنا. فالطبيعة ليست هي التي تقتل ولكنّ القاتل نحن، البشر.

- عندما أُنهي دراستي ربما سأذهبُ إلى الميدان، أنا أيضًا.

- يمكنكِ أن تأتي معي ذات يوم. ولكنْ قبل هذا أتمنى أنْ ألتقي بك.

- ليس من المؤكد أن تلتقي بي بالسهولة التي أحسستُها من بنيامين. لكنْ لا مانع عندي.

- سأعود إلى النرويج خلال الأسبوع المقبل. أتذهبين أحيانًا إلى أوسلو؟

- ربما. ولكنْ

- ربما ماذا؟

- لدي صديق اسمُه جوناس

- أعرف هذا. لقد سمعت عنه أيضًا.

- عند هذا الحد أرى أنه ذهب بعيدًا وإلى أبعد مما يحق له.

- من تقصدين؟

- بنيامين. كان يجب أن يحترم وعدَه بالسرية.

- ليس هذا خطيراً جدًا، أنّا. ولكن ما الذي كنتِ ستقولينه؟

- لقد أسّسنا جمعية بيئية في المدرسة، بإيعازٍ وتشجيع من بنيامين. فإذا أتيتِ من أوسلو لتروي علينا ما رأيتِه في أفريقيا، ثقي أن نصف المدرسة سيأتون بالتأكيد لسماعك. سيحق لنا الحصول على قاعة الحفلات، وإن تعذّر هذا فسوف نحتلّها. تستطيعين أن تتحدثي عن ضحايا الاحتباس الحراري الحاليين. ولعلك ستجلبِين معكِ بعض الصور، وبعض النُّكاتِ أيضًا.

- سيسعدني ذلك كثيراً، أنّا.

- يجب أن يكون ذلك في المساء. ويمكنك أن تقضي الليلة في بيتنا. لا أعتقد أنك تستطيعين أن تتخيّلي أنواع الطبخات التي يُعدّها أبي. أمي ليست موهوبة مثله. لكنها تتقن صُنْع الحلويات.

- وهذا أمرٌ أُراه لطيفًا جدًا!

- ثم عندنا غرفة صغيرة للأصدقاء مع أريكة كبيرة وسبع عشرة وسادة مختلفة

- سبع عشرة وسادة؟

- وعلى كلِّ وسادة طرزٌ يروي حكايةً من حكايات الأساطير.

هناك وسادةٌ عليها صورةٌ جميلة لعلاء الدين في كهفه تحت الأرض عندما يكتشف المصباح السحري. كثيرٌ من الناس ينسون أن علاء الدين كان يملك أيضًا خاتمًا سحريا، ولكنْ لهذا الخاتم مكانٌ بارز في هذا التطريز، والحالُ أن شيئًا في هذا الخاتم له علاقة مع اليوم، سأحدثكِ به عندما نلتقي. هل سبقَ لكِ أن ركبتِ على ظهْر جَمل؟

- كثيرا، أنّا.

- لم أركبه سوى مرة واحدة. بنيامين نصحني بقضاء بعض الوقت مع العرب، وهذا ما فعلتُ في الآونة الأخيرة.

- أين هذا؟

- هنا في رأيي أنا ولكني أسمعُ بابا يتحرك في الأسفل، في المطبخ، سيكون بعد قليلٍ على السلّم. إنه يصعد مع الأرائك والشاي ويعتقد أنه سيُوقظني. سأروي لكِ المزيدَ عندما نلتقي. أنا مستعجلة! والآن عليّ أن أتظاهر بالنوم.

- نعم، يجب أن تواصلي لعبتك.

- اللهم إلا إذا قلتُ له أنّ إستر أنتونسن اتصلت بي هاتفيًا لكي تتمنّى لي عيدَ ميلاد سعيدا. أتعتقدين أنني أستطيع أن أفعل ذلك؟

- بالطبع. ليس في الأمر أي سرّ مهنيّ يخصني.

- يومًا سعيدًا إذًا!

- ويومك سعيد أنتِ أيضًا، أنّا. إنه يومُكِ أنتِ!

عند بلوغها السادسة عشرة من عمرها في ١٢ ديسمبر ٢٠١٢ تتلقى أنَا خاتمًا مرصعًا بالياقوت الأحمر من العمّة سونيفا. وقد جعلها هذا الإرث القديم تفكر في الناس الذين عاشوا على الأرض من قبلها.

كانت أنَا، الفتاة النرويجية، تمتلك أيضًا خيالاً واسعًا، إذ تكتشف أنها تستقبِل صورا وأفكارا من واقع آخر.

فمن خلال أحلامها تتواصل أنَا مع بنت حفيدتها التي تعيش من بعدها بنحو قرن من الزمن. وبعد أن تُنبّهها نوفا إلى الحالة المأساوية التي يتعرض إليها كوكب الأرض حاليًا لم يعد لأنَا سوى هاجس واحد: إيجاد وسيلة للتأثير على الحاضر حتى تضمن للأجيال القادمة مستقبلاً أفضل.

كانَ جوستاين غاردر في البداية أستاذا للفلسفة وتاريخ الأفكار في بيرغن قبل أن يكرّس جهده وفكره للكتابة. وقد لقيت رواياته عالم صوفي وفتاة البرتقال وسرّ الصبر وقلعة في البرينيه نجاحًا منقطع النظير في جميع أنحاء العالم. وإلى جانب نشاطه الأدبي، أسس غاردر مؤسسة صوفي للحفاظ على البيئة.



ISBN 978-91-87333-32-3

9 789187 333323

دار المنى